كاكاو

جورجي أمادو

من الأدب البرازيلي

رواية

دار الساقي

ترجمة
ماري طوق

کاکاو

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

Jorge Amado, CACAU

Copyright © 2010, Grapiúna Produções Artísticas Ltda

First published by Companhia das Letras in 1934

All rights reserved

الطبعة العربية

©دار الساقي

جم يع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠٢٠

الطبعة الإلكترونية، ٢٠٢١

ISBN-978-614-03-0225-9

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣، بيروت، لبنان

الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣

هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi

دار الساقي

Dar Al Saqi

إلى

ماريا نيسيا مندونسا

ماريا تيريزا مونتيرو

ألفس ريبيرو

دا كوستا أندراديه

جوان كورديرو

بول بوب

حاولت أن أروي في هذا الكتاب، بالحدّ الأدنى من الأدب والأقصى من النزاهة، حياة العمّال في حقول الكاكاو جنوب ولاية باهيا.

أوَتكون رواية بروليتارية انبثقت من هذا كلّه؟

جورجي أمادو (ريو دو جانيرو، 1933)

"عِزبة الأخوّة"

غزت الغيوم السماء إلى أن بدأت تمطر قطرات كبيرة، واختفى كلّ أثر للزرقة. طفقت الريح تعصف بالأشجار، وأخذ الرجال شبه العراة يرتعشون، والماء المتقطر من الأوراق ينساب عليهم. وحدها الحمير المنصرفة إلى اجترار العشب النابت أمام المستودع بدت كأنّها لا تأبه للمطر.

رغم العاصفة، أكمل الرجال عملهم. سأل كولودينو: "كم أروباً[1] أنزلت؟"

1 أروب: عيار إسباني قديم للوزن يتراوح بين 11 و15 كلغم، ولا يزال مستخدماً في إسبانيا والبرتغال وعدد من بلدان أميركا اللاتينيّة. (الهوامش كافة من المترجم)

– عشرون ألفاً.

أمسك أنطونيو باريغينيا، البغّال، بآخر كيس قائلاً: "هذه السنة بلغ المحصول ثمانين ألف أروب...".

– من الكاكاو فحسب.

– ومن المال الوفير...

ثم حلّا أحزمة الحمير. نخزها باريغينيا: "هيّا، يا زمرة النحس".

بدأت الحيوانات السير متباطئة، فساطها أنطونيو باريغينيا.

– هيّا تقدّم أيها الجحش الممروض، اللعنة عليك.

في المقدمة كانت مينيرا، "عرّابة" القطيع، تُحرّك جلاجلها، والمطر ينهمر بغزارة.

في منزل الكولونيل[2]، كانت النوافذ مغلقة. أونوريو، الآتي من بستان الكاكاو، مازح باريغينيا قائلاً: "هاه! البغّال القحبة!"

2 الكولونيل: من كبار الملّاك.

– هل أنت بخير يا مشذّب الأشجار المخنّث؟

– وكيف حال أمّك؟

– أمّك أنت المترهّلة الخرعة.

اختفى الموكب المحمّل بأكياس الكاكاو عند منعطف الطريق. في آخر الركب، كان أنطونيو باريغينيا، المديد القامة، القويّ البنية، الأسمر البشرة، يضرب الحمير بسوط طويل.

صعد أونوريو الطلعة وخاطب كولودينو قائلاً: "صباح الخير".

– اللعنة على هذا النهار، المطر لا ينقطع.

فجأة غيّر الموضوع قائلاً: "لقد سبق وأنزلنا عشرين ألف أروب يا أونوريو!"

– لا بدّ أنّ مانيه الطاعون[3] مسرور الآن!

3 أحد ألقاب الكولونيل مانيل ميسيل دو سوزا تيليس، مالك العزبة.

– بالتأكيد!

جلس أونوريو على الصخرة بالقرب من كولودينو، بمحاذاة المخزن الذي بقيت أبوابه مغلقة.

في الجانب المقابل، محاطةً بحديقة تجمّلها أزهار الياسمين وأشجار الورد، دارة الكولونيل بنوافذها الزرقاء وسطيحتها الخضراء وفي الأعلى لافتة رثّة الدهان كُتب عليها:

عِزبة الأخوّة الكولونيل مانيل ميسيل دو سوزا تيليس

انطلق أونوريو بضحكة صريحة بانت معها كلّ أسنانه البيضاء الرائعة التي كانت تتباين مع وجهه الأسود وشفتيه الغليظتين: "مانيه الطاعون!"

"مانيه الحاصد كلّ شيء في طريقه"، ثم شتم قائلاً: "مانيه الخراء الذي كلّما قلّبته زادت نتانته".

نظر الرجال إلى دارة الكولونيل. ما أكبرها وساكنوها قلّة: الكولونيل، وزوجته، وابنته، وابنه، الطالب الجامعيّ الذي كان يظهر خلال الفرص أنيقاً، معاملاً العمّال بنذالة كالعبيد! ثم نظروا إلى منازلهم حيث ينامون، نحو عشرين كوخاً من اللّبن ممتدّة على طول الطرق، يكسوها القش، ويغمرها المطر.

- يا للفرق!

- الثروة... هبة الرب الرحيم...

- عن أيّ رب رحيم تتحدّث؟... الرب الرحيم هو أيضاً إلى جانب الأثرياء.

- صدقت.

– كنت أودّ فعلاً أن أرى مانيه الطاعون ينام مثلنا في الأكواخ...

– سيكون الأمر مسلّياً.

أشعل كولودينو سيجارة. أمسك أونوريو منجله الذي يشذّب به أشجار الكاكاو ثم قال: "الحقل هناك، في الجانب الآخر من النهر. حقل الكاكاو وأيّ حقل... والموسم، الله يبارك...".

– هذه السنة سيبلغ إنتاج الكاكاو نحو ثمانين ألف أروب.

كنّا نتقاضى ثلاثة آلاف وخمسمائة ريس[4] في اليوم ولا نتذمّر بل كنّا نضحك ونمرح، رغم أنّ أحداً منّا لم يكن قادراً على ادّخار سنتيم واحد، فبيت المونة يمتصّ كلّ رواتبنا. كان معظم العمّال مدينين بالمال للكولونيل، وهكذا وجدوا أنفسهم أسرى العزبة، ثمّ من كان ليفهم شيئاً من حسابات جوان فرميليو القائم على أعمال الصرف خاصة أنّ أغلبنا لا يحسن القراءة؟ كنّا مثقلين بالديون... كان دين أونوريو يصل إلى أكثر من تسعين ألف ريس، ولذا لم يعد بإمكانه أن يوفّر المال للعلاج من الملاريا المزمنة التي تمنعه تقريباً من المشي.

4 كان الريال البرازيلي القديم يُعادل ألف وحدة فرعيّة تُسمّى ريس.

رغم ذلك، كان ينطلق في السادسة صباحاً ليشذّب الحقول بعد أن يتناول صحناً من الفاصوليا السوداء مع اللحم المقدّد. كان رجلاً غريباً، أونوريو ذاك، أسود، قويّ البنية، طويل القامة، مشاغباً، عاملاً في العزبة منذ ما يقارب عشر سنوات. كان رفيقاً لطيفاً قادراً على التضحية في سبيل الآخرين، ورغم استدانته الكثير من المال، لم يكن الكولونيل ليطرده.

كان يشاع أنّه قتل بضعة رجال بأمر من مانيه الطاعون. لا أعرف شيئاً عن صحّة الأمر. أعرف أنّ أونوريو كان أفضل صاحب في العالم؛ يشرب التافية من عنق الزجاجة ولم نره ثملاً قط. وأعرف أنّ مانيه الطاعون كان يراعي جانبه.

"مانيه الطاعون" لقبٌ أعطي للكولونيل في المدينة، فلبِسَه. وكان فعلاً أشبه بطاعون، ذاك الرجل السمين، السبعينيّ الذي يتحدّث بصوتٍ فاتر ويرتدي ثياباً رثّة. اسمه الحقيقي مانيل ميسيل دو سوزا تيليس. كان يملك أكثر من ثمانين ألف كونتو[5]، وتمتدّ أملاكه على طول مقاطعة إيليوس. مساء كنّا نحصي الغلّة بمساعدة "أستاذنا" في الرياضيات جوان

غريلو، وهو خلاسيّ هزيل كجرادة، ويروي نوادر مضحكة. كان يجري الحسابات جالساً على الأرضية الخشبية، وهي بمكانة سريره، في حين أن كولودينو منصرف إلى مداعبة قيثارته.

5 عملة تساوي ألف كروزيرو الذي هو نفسه يساوي ألف ريس.

– ثمانون ألف أروب باثني عشر ألفاً وخمسمئة، أي ما يساوي...

– ألف كونتو.

– هذا ما يربحه ذاك الخسيس الملوّث من الكاكاو فقط لا غير.

حملقنا مندهشين: ألف كونتو! وهو يدفع لنا ثلاثة آلاف وخمسمئة ريس في النهار.

طفولة

لا أذكر الشيء الكثير عن أبي. حين توفّي كنا لا نزال صغيرين، أنا وشقيقتي، أنا في عامي الخامس وهي في الثالث. أذكر فقط انتحاب والدتي وشعرها منسدلٌ على وجهها الشاحب، وأرى عمي في بذلته السوداء يعانق الناس المعزّين متظاهراً بالحزن الشديد. أخذت السماء تمطر بغزارة فأسرع الخطى الرجالُ الذين يحملون النعش دون أن يهتموا بنحيب والدتي التي لم تكن تريد السماح لهم بأخذ زوجها.

كان أبي، لدى عودته من المعمل، يجلسني على ركبتيه ويعلّمني أحرف الأبجدية بصوته الجميل. كان لطيفاً وغير قادر، كما يشاع عنه، على إيذاء نملة. يلهو مع أمي كأنّهما لا يزالان عاشقين فتيّين. كانت أمي بقامتها الفارعة وشحوبها الشديد، وبيديها الفائقتي النعومة وأناملها الطويلة، ذات جمال غريب يجعلها أقرب إلى شخصيّة روائية. كانت عصبيّة المزاج وتبكي أحياناً دون سبب؛ حينئذٍ يحتضنها والدي بذراعيه القويتين ويغنّي ألحاناً تحملها على الضحك. لم يكونا يؤنّباننا قطّ.

بعد وفاته، أمضت أمّي عاماً شبه هاذية، منزوية في ركن من البيت دون أن تهتمّ بطفليها ولا بزينتها، تدخّن وتبكي فقط، وتصاب أحياناً بنوبات رهيبة فتملأ ليالي سرجيب[6] الهادئة بصرخات أليمة.

6 ولاية في البرازيل تحدّها باهيا، المسرح الرئيسي لأحداث هذه الرواية، من الجنوب والغرب، وعاصمتها أراكاجو.

حين عادت إلى حالتها الطبيعيّة بعد انقضاء هذه السنة وأرادت أن تدير أعمال والدي، جاء عمي حاملاً كومة من الأوراق ليثبت لها أنّ المعمل بات ملكاً حصريّاً له، لأنّ أبي – كان يقول ذلك والدم يطفر من وجهه محرّكاً يديه بشكلٍ يعبّر عن استيائه العارم – نظراً إلى عقله شبه المختلّ وطبعه الخياليّ لم يخلّف وراءه إلا الديون وسيتولّى تسديدها بنفسه لئلا يوصم اسم العائلة بالعار.

صمتت أمي المسكينة واحتضنتنا بين ذراعيها لأنّنا كنّا نرتجف خوفاً في كلّ مرّة نرى فيها عمي، بوجهه الأحمر، وكرشه المنفوخ، وبذلته من الكتّان السكريّ، وتينك العينين الصغيرتين الشريرتين.

كان يمرّر دوماً يديه على بطنه. عمي... الأكبر سناً من أبي بعشر سنوات، انتقل في الحال للعيش في ريو دو جانيرو، حيث بقي طويلاً

دون أن يُعرف عن أخباره شيء أو عمّا كان يفعله. حين كانت أعمال أبي تسير على ما يرام كتب إليه رسالة يشتكي فيها من الحياة ويعلمه أنّه يريد العودة. وما لبث أن عاد فوراً. وألحقه والدي بالعمل في المصنع.

وصل مع زوجته، امرأة عمي سانتا، وكانت في الحقيقة اسماً على مسمى، أي قدّيسة، والضحيّة البائسة لذاك السخيف.

كان أبي يعيش بكليّته من أجلنا ومن أجل بيانوه القديم. في المعمل، كان يتحدّث إلى العمّال ويستمع لشكاواهم ويعالج مشكلاتهم في حدود الممكن. الواقع أنّه وعماله كانوا يعيشون في انسجام ووفاق، وأنّ المعمل كان يشهد ازدهاراً نسبيّاً. لم نتوصّل قط إلى أن نكون أثرياء فعلاً لأن أبي لم يكن مخلوقاً إطلاقاً للأعمال بل يضيّع أفضل الفرص التي تُقدّم له. كان قد ترعرع في أوروبا فطبعته بعادات بوهيمية، كما جال قسماً من الكرة الأرضية. وكان يهوى المقتنيات الجميلة القديمة، والأشياء السريعة العطب، والكائنات الضعيفة، وكلّ ما يوحي بالاعتلال أو النهاية القريبة. من هنا ربّما شغفه بأمي التي كانت بنحولها الشاحب المعذّب تبدو كأنها في فترة نقاهة أبديّة. كان أبي يقبّل طويلاً يديها الناعمتين، بكثير

من الحنان، لخشيته ربّما من أن يحطّمهما. وكانا يبقيان ساعات وساعات في صمت تامّ، صمت عاشقين متفاهمين مكتفيين واحدهما بالآخر. لا أذكر أنّني سمعتهما مرّة يخطّطان لمشروعٍ ما.

أمّا نحن، أنا وأختي، فكنّا الطفلين المدلّلين لأبي وأمي.

بوصول عمّي، تغيّر كلّ شيء. هو لم يسبق له أن ذهب إلى أوروبا، وكان يشبه كثيراً جدّي الذي جعل من ثماني عشرة سنة من الحياة المشتركة مع جدّتي إحدى تلك المآسي المريعة الغامضة الناتجة عن اقتران الغباء برهافة الإحساس. كان عمّي يضرب أولاد العمّال وهذا لم يفاجئني من رجل، كما كان يشاع عنه في المدينة، أنّه يضرب زوجته.

مسكينة زوجة عمي، سانتا الطّيبة جداً، التي كانت تحبّ الأطفال حباً جمّاً وتتلو مسبحتها باستمرار حتى تكلكلت أصابعها. كانت مريضة بزوجها. أغوى عمّي عاملة وراح يساكنها علناً. لم تستطع سانتا مقاومة حزنها فأسلمت روحها ومسبحتها في يديها، سائلة أبي ألا يتخلّى عن ذاك الشقيّ زوجها.

ازدهر المعمل فعلاً. لم أستطع أن أفهم سبب انخفاض أجر العمّال. أبي، الضعيف بطبيعته، لم تكن لديه الشجاعة ليبعد عمي عن المعمل، وذات يوم، وفيما كان يعزف على البيانو أحد ألحانه المفضّلة، أُغمي عليه وتوفّي.

كانت المدينة ترتفع على المنحدرات وتتوقّف هناك في الأعالي لصقَ الدير الهائل.

من القمّة، كنّا نرى المعمل، أسفل التلة التي كانت المدينة تلتف حولها مثل أفعى برأس واحد وبأبدانٍ لا تحصى. ربّما لم تكن جميلة مدينة ساو كريستوفاو القديمة، العاصمة السابقة للدولة، لكنّها كانت مميّزة بمنازلها الكولونياليّة الرابضة وسط صمت نهاية العالم، وبكنائسها وأديرتها التي تجثم على صدر خمسمئة عاملة في معمل النسيج.

أظن أنّ أبي بنى المعمل في ساو كريستوفاو لأن المدينة استهوته بقدمها وسلامها وهدوئها. لا بدّ أنّها بحزنها وكآبتها راقت له ولروحه التي أعيتها الأسفار والمغامرات.

كنّا نسكن آنذاك في منزل هائل ذي طابق واحد من القرن الماضي، وكان مسكناً خاصاً بالحكّام؛ بوّابة مدخله في غاية الضخامة، ونوافذه غير متناسقة. كان المنزل مطلياً بكامله بالأحمر، وكنّا، أنا وإلزا، نتنقّل في غرفه الكبيرة طوال النهار منصرفين إلى لعبة الغميضة. لكن، حين يأتي المساء، لم نكن نجرؤ على دخول الغرف لخشيتنا الأرواحَ الهائمة الآتية من العالم الآخر، الأرواحَ المتألمة التي كانت تصفّر وتجرجر سلاسل قيودها، كما كانت تروي لنا فيرغولينا بكلّ صدق، وهي زنجيّة معمّرة ناهزت المئة، وكانت مربّية أمي ثم صارت مربّيتنا.

بالقرب من منزلنا قصرُ الحاكم القديم، شبه المتداعي، وقد حُوّل إلى ثكنة يسكنها بضعة جنود قذرين وكسلانين. قبالته الميتمُ، وفيه ستّ راهبات وثمانون طفلة هنّ بنات العاملات والآباء المجهولين. لم تكن هؤلاء الطفلات يخرجن من الميتم. بعضهنّ حين يغدون كبيرات يعدن إلى المعمل حيث ولدن، ومنه سيرسلن مجدّداً طفلات دون اسم إلى الميتم. وبعضهنّ الآخر، الأكثر بياضاً، يدخلن إلى سلك الرهبنة ويتفرّقن في أنحاء البلاد. وعلى مسافة أبعد من الميتم ديرُ الفرنسيسكان الهائل

بحجمه وصمته. كنت عاجزاً عن رؤيته دون أن ينتابني شعور بالخوف. يتألّف ساكنوه من أربعة رهبان فقط، ومع ذلك كان هؤلاء يهيمنون على المدينة. كانوا يلقون العظات التي يصفون فيها الجحيم بالألوان الأكثر سواداً، وما يزيد في رعب أقوالهم لغتهم حيث تتخالط الألمانية بالبرازيلية. ونحن، الصبيةَ، كنّا نخشى الجحيم وأكثر منه الرهبان.

أخبرني سينفال، الذي سيغدو رفيقي لاحقاً في التشرّد والتسكّع، أنّ الرهبان كانوا يرغمون العمّال على العمل مجّاناً في ترميم الكاتدرائيّة (حيث كان يوجد تمثال هائل مطليّ بكليّته ذهباً للقديس كريستوف حاملاً الطفل يسوع ومتكئاً إلى شجرة جوز الهند)، ومن لا يمتثل للأوامر يطرد بعد أن يشي به عمي للكهنة الذين كانوا يدعونه باستمرار إلى العشاء.

كانت المنازل، وكلّها متهالكة ومكسوّة بالقرميد، تمتدّ في الساحة وتنتظم متماثلة على طول المنحدرات.

في المساء، نضع الكراسي على الرصيف، وتبدأ العجائز رواية قصص جميلة عن أيّام زمان. ويبدأ الصبية الركض حول الصليب الذي سوّده

الزمن.

كانت الفتيات الثريّات القليلات يذهبن إلى مدرسة الراهبات في أراكاجو، وحين ينهين دراستهنّ وقد أصبحن معلّمات كنّ يحظين دوماً بخطيب متخّصصٍ في الحقوق. كنّ داهيات ماكرات، ويُجدن، على حدّ قول والدي، عزف أنغام معاصرة على البيانو.

هذا كان يحدث على المنحدرات وفي الساحة حيث علية القوم، والنخبة الأرستقراطيّة. أمّا في الأسفل، فهناك المعمل وحيّ العمّال والرعاع.

كان المعمل مبنى كبيراً أبيض يضجّ صخباً وحياة، ويضمّ سبعمئة عامل منهم خمسمئة امرأة. كان الرجال يهاجرون قائلين إنّ العمل في الغزل والنسيج يلائم النساء. لكنّ الأضعف بينهم لا يرحلون، بل يتزوّجون وينجبون جحافل من الفتيات يحللن مكان الجدّات والأمهات حين يعجزن عن مهماتهنّ.

كانوا يهلّلون لمولد فتاة لأنّ هذا يعني يديْن عاملتين إضافيّتين. أمّا مولد صبي، فكان بخلاف ذلك، ينظر إليه على أنه كارثة. فالصبيّ يأكل

ويكبر ثم يرحل إمّا صوب مزارع البن في ساو باولو، وإما باتّجاه مزارع الكاكاو في إيليوس مُظهراً حجوداً غريباً حيال أهله. لدى خروجهم من المعمل كان العمّال يجتازون جسراً خشبياً صغيراً فوق جدول للوصول إلى حيّ "الحيط عالحيط" حيث يقيمون كلّهم تقريباً. الحيّ مستطيل تتحاشر قيه المنازل وتتلامس عند أسافلها. من هنا الاسم الطريف الذي أعطي له. ووسط هذه المنازل الصغيرة المستوصف وعيادة الأسنان التي يأتي إليها الطبيب المختصّ مرّتين في الأسبوع من أراكاجو[7]، فيعلّق سينفال على الموضوع: "لا يمكن للعامل أن يُصاب بألم الأسنان إلا نهاري الثلاثاء والجمعة".

7 عاصمة ولاية سرجيب في البرازيل.

أمّا الممرّض، فكان يقيم في ساو كريستوفاو، ولكن بما أنّه الوكيل الانتخابي لعمّي، كان يضيّع الكثير من الوقت في هذه الوظيفة.

كان الناس في حي "الحيط عالحيط"، حيث يقيم الرعاع، يرفّهون عن أنفسهم عند المساء، فتعزف القيثارات موسيقا "الكوكوس"[8]، وتسري

زجاجة الغنول من يدٍ إلى يدٍ. يقرأ العمال حينئذٍ رسائل الأهل في إيليوس، ويخطّطون لمشاريع هجرة جماعيّة.

8 موسيقا رقصةٍ شعبيّة برازيلية.

كان الكاكاو يمارس عليهم سحراً مرضيّاً. من وقت إلى آخر، كان الرهبان ينزلون إلى الحيّ محاذرين الاقتراب من الصبية المقمّلين، مبتسمين للعمال، قائلين لهم إنّ هناك "إصلاحاً صغيراً يجب القيام به في الكنيسة أو في الدير"...

حين توفّي والدي وأعلن عمّي إفلاسنا، انتقلنا للسكن في منزل صغير أوّل طلعة أحد الشوارع، وهكذا صرتُ أقرب بكثير إلى بروليتاريا حي "الحيط عالحيط" منّي إلى أرستقراطية مدينة ساو كريستوفاو المتهالكة.

اعتدت لعبَ كرة القدم مع أطفال العمّال. أمّا الكرة، فكانت بدائيّة مصنوعة من مبولة عجل ملئت هواءً. أصبحت رفيقاً لصبيّ يدعى سينفال، وهو ابن وحيد لعاملة توفّي زوجها في ساو باولو، بعد توّرطه في مشكلات مع الشرطة لسببٍ لا أعرفه. أعرف فقط أنّ العمال كانوا يتحدّثون عنه كأنّه شهيد. كان سينفال يستفزّ أرباب العمل قدر ما يستطيع. كان نحيلاً، ناتئ العظام، ومع ذلك يملك صوتاً جهوريّاً ونظرات

عدائية. يقودنا في غزواتنا على المانغا والكاجو في الحدائق المجاورة. وكلّما مرّ عمي بصق سينفال جانباً. أخبرنا أنّه سيسافر إلى ساو باولو عند بلوغه السابعة عشرة ويدخل معترك النضال أسوةً بأبيه. ولم أفهم ما كان يعني بكلامه إلا لاحقاً بعد مضيّ وقت طويل.

كنا نتردّد إلى المدرسة، أنا وإلزا. أمي تصنع مطرّزات من الدانتيل، ويساهم أهلها في إعالتنا. حين بلغت الخامسة عشرة ذهبت للعمل في المصنع وقد غدوت فتى مربوعاً قويّ البنية. بعد أن كنت الطفل الشاحب الهزيل صرت مراهقاً صلبت عضلاته وقست جرّاء المشاجرات مع زعران الأزقّة.

كنت أبدو أكبر سنّاً ممّا أنا عليه في الحقيقة. أعاشر باستمرار مشاغبي المدينة الصغار البائسين فقراء الحال أمثالي. وبانتقالي للعمل في المصنع صرت ندّاً لهم تماماً، ولن يقول لي سينفال بعد اليوم مبتسماً ابتسامته الهازئة: "ابن الأغنياء".

أمضيت خمس سنوات في المصنع أكابد وحشيّة عمي. ولدى بلوغ سينفال السابعة عشرة باع كلّ ما يملك من ملابس وأثاث ويمّم شطر

المعامل أو الأملاك الزراعية في ساو باولو. الخبر الأوّل والأخير الذي وصلنا منه كان بعد سنتين من رحيله: وجد نفسه متورّطاً في إضراب وكان ينتظر توقيفه بين لحظة وأخرى. بعد ذلك لم يصلنا منه أيّ شيء على الإطلاق، لا رسالة ولا بطاقة. ما حمل العمّال على القول وهم يشدّون على قبضاتهم غضباً: "لحق بمصير والده".

لكنّ المصنع كان يصفّر فينصاعون لصفيره هزيلين صامتين.

كانت يداي آنذاك خشنتين عريضيتن. صحيح أنّني نسيت الكثير من القليل الذي تعلّمته في المدرسة، ولكنّ وضعي كعامل كان في المقابل يشعرني بشيء من الكبرياء. لم أكن لأقايض عملي في النسيج بمنصب ربّ العمل. كان عمّي، مالك المصنع، يزداد كهولة واحتقاناً وثراءً. كان كرشه علامة ازدهاره، فبمقدار ثرائه، يزداد كرشه ضخامة، كرشه الهائل، الوقح، الشنيع. آنذاك كان قليل من الثروات في سرجيب يضاهي ثروته. لا يتصدّق عمّي إلا على الدير (حيث كان يدعو نفسه دوماً على العشاء) وعلى الميتم يزوّده بالمنّات واليتيمات. لو أحصيت أصابع يديك وفوقها

قدميك، لن تصل إلى عدد العاملات اللواتي غرّر بهنّ واجتذبهن إلى حياة الفسق.

قرابة سنتي الرابعة عشرة أغرمت بمومس منهوكة مصابة بالسفلس، ومعها افتتحت حياتي الجنسية. عرفت الحبّ في الثامنة عشرة، العذريّ منه هذه المرّة. أُغرمت بفتاة صغيرة شقراء من الميتم وأصبحت في ما بعد راهبة. وأخيراً في العشرين خطرت لي فكرة الزواج بمرغريدا، وهي عاملة مثلي. لكنّ عاقبة هذه العلاقة كانت وخيمة، إذ كان عمّي يرنو أيضاً إلى مرغريدا التي تستعرض نهديها البارزين الأبيضين، وتظهر وجه طفلة ماكرة. أخبرتني مرغريدا ذات يوم وهي تطلق ضحكة فاجرة أن ربّ العمل يسعى إلى التحرّش بها، وأظنّ أن ضحكتها هي التي دفعتني لأهجم على عمّي وأهشّم وجهه الخبيث، فطردني من العمل.

كانت ساو باولو تبدو لأمّي ولإلزا آخر العالم، ولم تكونا لتسمحا لي أبداً بالذهاب إليها. بدأت أتحدّث عن الذهاب إلى إيليوس، أرض الكاكاو والمال، وقبلة أرتال غفيرة من المهاجرين. وبما أنّ إيليوس كانت على مسافة يومين من مرفأ أراكاجو، وافقتا على رحيلي ذات يوم مشرق في

الدرجة الثالثة على متن باخرة Murtinho المبحرة إلى أرض الكاكاو، الألدورادو[9] التي يتحدّث عنها العمّال كأنّها أرض كنعان.

9 موطن أسطوريّ الثروة.

كانت أمّي تبكي ومعها إلزا. حين قبّلتاني عشيّة ذهابي إلى أراكاجو لأستقلّ الباخرة، نظرتُ إلى مدينة ساو كريستوفاو القديمة وقلبي مثقل بالحنين. كنت واثقاً أنّني لن أعود أبداً إليها.

كان أولاد العمّال يلعبون كرة القدم بمبولةِ عجل منفوخة هواء.

سفر

كان ركّاب الدرجة الأولى على متن "Murtinho" يؤكّدون أنّها وصمة عار على جبين كلّ شركات النقل البحريّ. كانوا يجدون الدرجة الأولى موبوءة. إذاً، على هذه الحال، لنتخيّل ما كانته الدرجة الثالثة.

مع ذلك، كانت صحيفة Aracaju [أراكاجو] الرسميّة تعلن:

الباخرة السريعة والفخمة

"MURTINHO"

تعلن رحلتها بين 24 و29 الجاري.

نزلت في إيليوس لا أملك إلا ستة عشر ألفاً وأربعمئة ريس، ورزمة صغيرة من الأسمال، وأملاً كبيراً لا أعرف بالضبط فحواه.

أعلمني أحد الحمّالين بأنّه لن يتسنّى لباحث عن عمل العثور على فندق إلا في "جزيرة الأفاعي" وهي أزقّة متلاصقة في أسفل المدينة الصغيرة النابضة بالحياة. لا، بل إنّه نصحني ببيت الست كوليتا حيث الساراباتيل[10] شهيّ. وكان فعلاً شهياً. لكنّني كنت أدفع ثمن الساراباتيل والسرير الذي أنام عليه ألفي ريس في النهار. أمضيت خمسة عشر يوماً في فندق الست كوليتا، وكنت أدين لها بأربعين ألف ريس. أوضحت لي أنّها كانت تراعيني كثيراً وأنّه يجدر بي على الأقلّ أن أترك الغرفة والقصعة لضيفٍ آخر قادر على الدفع، فهي فقيرة ولا تستطيع أن...

10 أشهر طبق شعبي في البرازيل.

أخذت قجتي وخرجت. بدأ إنتاج الكاكاو في هذه السنة يتراجع ولم يكن سهلاً في النتيجة إيجاد عمل. قرعت أبواباً عدة لكن عبثاً.

– لا وظيفة لدينا.

كان الجواب يتراقص في أذنيّ. يوم تركت فندق الست كوليتا انطلقت للبحث عمّن يشغّل عمّالاً. كان الكولونيلات يرفضون توظيفي قائلين إنّ موسم الجني لم يبدأ بعد وإنّ هناك وفرة في العمّال الزراعيين ناظرين إليّ كأنّني عدوّ أتى لسرقتهم.

وقفت بلا حراك قبالة المرفأ. أحد المراكب يعبر العارضة مبحراً إلى السلفادور. قرعت الساعة في المحلّ التجاريّ تمام الرابعة، ورغماً عن كلّ شيء، لم أكن أشعر بالجوع، فقط بالحقد تجاه الجميع. مشيت على غير هدى ما تبقى من وقت ما بعد الظهر. رأيت الرجال يعودون إلى بيوتهم محّملين بالرُّزم فبدأت أشعر بالجوع. لكأنّ جيشاً من الجرذان أخذ ينهش أحشائي. شعرت بشيء ما غريب يدفعني إلى البكاء والسرقة.

كان الليل يحجب المدينة. لم يعد هناك إلا النور المرتعش للمصابيح. وقفت أمام مخبز. صبية وخدم يدخلون ويخرجون وفي أيديهم أكياس من الخبز والبسكويت. دخلت أيضاً. بقيت أنظر إلى الجبل الهائل من أرغفة الخبز مرتفعاً قرب الجدار إلى حدّ ملامسة صورة القدّيس يوسف،

شفيع محلّ الحلويات "ايكس دو بروبليما". فكرت في يسوع مكثّراً الخبز[11]. لكنّني في الحال ما عدت أرى يسوع، بل أرى الجوع، الجوع بشعر يسوع وعينيه العذبتين، الجوع يكثّر أرغفة الخبز مالئاً المحلّ بأكمله، تاركاً فقط زاوية صغيرة للموظّف. وبعد التكثير تأتي القسمة. كان للجوع الآن لباس قاضٍ ووجه يسوع نفسه بتعابيره الرقيقة. الجوع الذي يعطي كلّ الخبز للأغنياء الداخلين صفوفاً وهم يمسكون بالأوراق الماليّة من فئة مئة ميليريس[12] بين أصابعهم المليئة بالخواتم. كان الجوع يمدّ لسانه كلّه للفقراء وهم يمدّون أذرعهم الهزيلة عند الباب. ولكنّ الفقراء اجتاحوا محلّ الحلويات طارحين صورة الجوع أرضاً، وابتاعوا الخبز. دخلت معهم فأوقفني الموظّف: "ماذا تريد؟"

11 تلميح إلى المعجزة التي قام بها السيّد المسيح وترويها الأناجيل حين أخذ خمسة أرغفة وسمكتين وكثّرهما مطعماً تلاميذه والجموع التي احتشدت لرؤيته.

12 كل ميليريس يساوي ألف ريس.

مرّرت يدي على جبيني. كان العرق يتصبّب منّي، والجرذان في معدتي، تنهش نهشاً... نظرت فرأيت أنّ أرغفة الخبز لا تزال هناك في عمق

المخبز برعاية القدّيس يوسف. تمتمت للموظّف الذي كان يستعدّ لمناداة رجل الشرطة: "اعذرني، لا... لا أريد شيئاً".

يدخل الخدم مع المال ويخرجون مع الخبز.

المدينة صغيرة. جلت في كلّ شوارعها. كنت معتاداً، إن جاز القول، الجوع. رحت أنظر إلى الأشخاص القلائل الذين لا يزالون يتنزّهون في المدينة، بهيئة مذعورة. أحياناً كانوا ينظرون إليّ أيضاً فأبتسم، مرتبكاً، وفيّ خجل من جوعي.

ربّما كان الوقت منتصف الليل حين خضت الحديث مع حارس مدنيّ، قبالة مخزن المؤن بالضبط. كان يبدو كأنّه يتأمّل الحديقة ثم جاء وقدّم إليّ سيجارة. لا أعرف ما الذي دفعني إلى أن أروي له قصّتي لكنّني أعرف أنّني رويتها بالكامل. ودخّنت بشهيّة هذه السيجارة، أوّل طعام لي في ذاك النهار. اصطحبني الحارس إلى المخبز وقدّم إليّ رغيف خبز بخمسمئة ريس. أكلته وأنا أقسّمه إلى قطع.

– شكراً يا أخي العزيز.

– ليس هناك ما يستوجب الشكر. أتعرف. جعت مراراً أيضاً. اليوم الأوّل سيّئ جداً. وبعده تتعوّد... أهناك شيء لا نتعوّده في هذا العالم؟ لكنّ الأسوأ – أخذ الحارس يحدّق إلى النجوم بهيئة غريبة – عندما يكون لديك أولاد. أنت عازب أليس كذلك؟ أمّا محسوبك، فلديّ زوجة وستة أطفال أعيلهم بمئة وعشرين مليريس... ستة أطفال... تخيّل...

كان يباعد أصابعه بطريقة مضحكة ووجهه مشدود يعبّر عن حقدٍ لا أعرف من يطال. أخذنا نمشي الهوينا وتابع قائلاً: "ستة أطفال أصغرهم لا يكاد يبلغ السنة. وبطن زوجتي على هذه الشاكلة".

بسط يديه الهزيلتين أمامه، مقلّداً بشكل كامل هيئة المرأة الحبلى. راح يتحدّث بلهجة المتمرد وقال شاتماً: "حياة قذرة. أحياناً يقول لي الأغنياء: لمَ تنجب الكثير من الأولاد يا روبرتو؟ لماذا؟... وماذا تريدون أن أفعل غير إنجاب الأطفال؟ لا أستطيع الذهاب إلى السينما وليس لديّ أيّ تسلية أخرى".

ثم أشار إلى تلّ "كونكيستا": "أسكن هناك يا عزيزي. لدينا القليل نأكله والأفواه كثيرة، لكنّك في أيّام الجوع تجد دوماً شيئاً ما يقيتك".

وصلنا إلى المرفأ. انبثق مبنى هائل يربض ثقيلاً في الليل.

قال روبرتو: "أحد منازل الكولونيل مانويل ميساييل دو سوزا تيليس. ثريّ كبير من هنا. هذا مصرفه في الأسفل. لديه من المال الكثير".

ثم بصق قائلاً: "حقير. لا يستمتع أبداً بالحياة. هذا الوغد متعته الوحيدة إيذاء الآخرين. توفّيت والدته وهي تطلب الصدقة وشقيقه يعيش هناك. تكسو جلده الندوب ولباسه أرثّ منّا. لم أرَ في حياتي وغداً مثله. لديه عشيقتان.

– هل لا يزال شاباً؟

– وما همّ. عمره سبعون... لا بدّ أن الترهّل أصاب...

– ولِمَ يريد عشيقات؟

– لمصّ عضوه، وما أدراني؟

بصق من جديد. صرنا على الجسر. قوارب كبيرة هاجعة على صفحة الماء، والقمر في السماء. اتكأ روبرتو على حافة الدرابزين.

– محسوبك لم يكن حارساً طوال حياته. كان لديّ مال، ومحلّ. وخسرت كلّ شيء. لم أكن قط موهوباً في السرقة. كابدت الجوع، واليوم

أقبض مئة وعشرين ميلريساً. ولكنّني سعيد أتعرف؟ من الأفضل أن يكون المرء فقيراً بدلاً من أن يعيش مثل هذا الحقير. ما الفائدة من أمثالهم؟ لا يعرفون شيئاً سوى السرقة... والصلاة؛ يصلّون فعلاً، بإمكانك أن تصدّق ذلك. يريدون الذهاب إلى السماء. وربّما كانوا يشترون لأنفسهم مكاناً هناك. في أيامنا كلّ شيء يشرى. أرأيت، أنا فخور لكوني حارساً، أنا فخور بذلك. يوماً ما، يوماً ما...

كنت أفكر في هذا الرجاء الكامن في نفوس العمّال كلّهم، الذي منذ ذلك الحين أشعر به يعتمل داخلي أنا أيضاً.

– هذا اليوم لن يتأخّر عن المجيء...

أشار روبرتو إلى مبنى الكولونيل: "وسأسكن هناك، بالطبع".

عند الظهيرة، كنت لا أزال أتسكّع في الشوارع. مشيت شبه ساهم وأنا أتضوّر جوعاً. ربّما كان سينتهي بي الأمر إلى الهرولة إلى أحد هذه المستودعات وسرقة شيء لولا أنّني صادفت روبرتو: "تعال نأكلْ يا صاحبي".

ذهبت معه إلى إحدى الحانات قرب المرفأ. في آخر الحانة، كان هناك خمسة عشر رجلاً يتناولون غداءهم. طلب روبرتو صحني فيجوادا[13]. أخذ يحيّي الرجال الذين يتناولون طعامهم. انضمّ أحدهم للجلوس معنا، وكان أسود البشرة، عاري الجذع. وصلت طلبية الفيجوادا. قال روبرتو: "أعرّفك على 98".

13 طبق برازيلي بامتياز، أساسه الفاصوليا السوداء.

– وأنا شاب من سرجيب يبحث عن عمل.

نظر إليّ "98" وهو يبتسم.

– الأعمال سيّئة في هذا الوقت إلا إذا كنت تريد حقاً أن تشقى.

– أين بإمكاني العمل؟

– في حقول الكاكاو حيث عليك العمل بالمعزقة.

– لا بأس. كنت أبحث عن عمل في المزارع...

– الكولونيل ميساييل يمكنه أن يوافق. هل ذهبت إلى هناك؟

– لا.

– سنذهب بعد تناول الطعام.

– شكراً "98".

ذهبنا بعد الغداء إلى مركز المصرف الذي يملكه "مانيه الطاعون".

نظر إليّ من رأسي حتى أخمص قدمي.

– كم عمرك؟

– عشرون.

– من أين؟

– من سرجيب.

– هل عملت من قبل في الأرض؟

"نعم". قلت على سبيل الكذب.

– حسناً. يمكنك الذهاب. هل لديك مال لتدفع ثمن الرحلة؟

– لا، يا سيّدي.

– حسناً تدبّر أمرك. ليس أنا من سيعطيك إيّاه. اركب القطار إلى بيرانجي. وهناك اسأل أيّاً كان عن موقع عزبتي. عرّف عن نفسك إلى رئيس عمالي. وهو من سيشغّلك، وحاول ألا تسرقني...

ما أشبه الكولونيل بعمّي!

– ها قد استأجرك الكولونيل.

ارتجفت من العبارة وقلت: "تستأجر آلة، حماراً، كلّ شيء، ولكن لا تستأجر إنساناً".

– هنا في الجنوب، نستأجر أيضاً الناس.

شعرت أنّ الكلمة تهينني. إذاً أنا مكترى... لقد انحطّ مقامي إلى ما هو أدنى من إنسان بكثير...

أعطاني روبرتو و"98" المال للسفر. نمت ليلتي تلك عند روبرتو على تلّة كونكيستا. في اليوم التالي، عند الصباح، صعدت في الدرجة الثانية في سكة الحديد "Ilhéus-Conquista" [إيليوس–كونكيستا] باتجاه قرية بيرانجي، الإقليم الأكثر جدّة واتساعاً في منطقة الكاكاو. فكّرت في سينفال. ماذا كان ليقول اليوم لو يعرف أن "ابن الأغنياء" سيذهب للعمل بالمعزقة؟

الدرجة الثانية

أخذت تمطر. كانت المقطورة مرعبة؛ لم يكن بالإمكان الجلوس في أيّ مكان فالماء يتساقط من السقف، والمقاعد الخشبية ترشح. في إحدى الزوايا عجوز يقرأ صحيفة محتمياً بمظلّته المفتوحة. بين فينة وأخرى، يبصق جانباً محدثاً بلسانه فرقعة غريبة. كانت الحافلة تضجّ بالناس. لم يبقَ إلا مكان بين العجوز وفتاة مخضّبة الخدين بشكل فاقع. وضعتُ بقجتي أرضاً وجلست. نظر إليّ العجوز بطرف عينه وبصق بصخبه المعهود. ابتسمت المومس وقامت بإشارة كأنّما لتقول إنّ العجوز مخبول. التزمنا الصمت كأناس معاقبين. من مقصورة الدرجة الأولى، تتناهى دمدمة أصوات وضحكات. اجتاز بائع صحف مقطورتنا راكضاً باتجاه الدرجة الأولى فاصطدم بقدم العجوز الذي راح يكيل شتائم أضحكت المومس. صفّرت القاطرة وباشرت السير ببطء. في الدرجة الأولى ركّاب يبكون ويلوّحون بمناديلهم عند الأبواب مودّعين، فتردّ عليهم مناديل بالمثل من المحطة.

– سفراً ميموناً... إلى اللقاء.

في مركبتنا، لم يتحرّك أحد تقريباً. يبدو أنّ لا أحد لديه عائلة. ودّعت وحدي روبرتو و"98". حرّكت المومس يدها مرسلة تحيّة إلى جميع من كانوا على الرصيف: الفقراء والأغنياء، الكولونيلات والحمّالين، والابتسامة لا تفارقها.

بدأت المدينة تختفي. وأخذت الأحاديث تدور في الحافلة حول جريمة ارتكبت في إيتابونا[14] مؤخّراً. طوى العجوز قربي صحيفته وبدأ الكلام: "لا بأس. المتّهم تمّت محاكمته".

14 إحدى بلديّات البرازيل، تابعة لباهيا، وفيها وُلد الكاتب.

– عن أيّ متّهم تتحدّث؟

"ألست على علمٍ بما يجري؟"، وتفحصّني بنظرات مستغربة.

– ياه! حتى أنّ الصحف تتحدّث عنه.

– أنا جديد في البلاد.

نظر إليّ بارتياب: "نازح؟".

– إذا شئت. آتٍ من سرجيب أبحث عن عمل.

– من سرجيب؟

توجهت إليّ المومس بالكلام: "أنا من ماروام".

– وأنا من ساو كريستوفاو.

أخذ العجوز يحدّق إلى الفتاة بعينين صغيرتين ماكرتين.

ثم أكمل حديثه: "المهمّ أنّ القاتل سيعدم".

– آه صحيح... هاتِ خبّرنا عن الجريمة.

كانت الفتاة تراقب ما يجري وكوعها مغروز في كتفي. روى العجوز الجريمة وهو يطرح بصاقه مالئاً به أرض المقطورة أكثر فأكثر. أصاخ الركّاب سمعهم.

– إنّها جريمة مقرفة. القاتل تخطّى السبعين. كنت أعرفه جيّداً. عملنا معاً عند الدكتور جوان سيلفا في ماكاكوس. الدكتور جوان سيلفا كان رجلاً وغداً، ويأمر بقتل الناس لأتفه الأسباب. وكان ميغيل موضع ثقته وفي خدمته.

قاطعه شاب يافع مربّع الرأس قائلاً: "إذاً، قتل كثيرين".

– لا أعرف شيئاً يا ابن سيارا[15]. كان ميغيل شخصاً متديّناً. يقطع كلّ أحد ستة فراسخ مشياً على القدمين ليذهب إلى القداس في إيتابونا. أنا لم أحبّ في حياتي رجلاً يعيش متعلّقاً بجُبَبِ الكهنة.

15 واحدة من ولايات البرازيل السبع والعشرين، وتقع في الشمال الشرقي.

وقال ابن سيارا: "هذا يليق بالنساء المسنّات".

نظر إليه العجوز مشكّكاً: "لا أعرف يا ابن سيارا".

– أيزعجك أن أكون من سيارا؟ أهل سيارا أناس شجعان.

– موافق، لكنّك تشوش عليّ تفكيري طوال الوقت فتنسيني مجرى الحديث.

قاطعته الفتاة: "دع الجد يكمل روايته".

بصق العجوز ثم استأنف كلامه: "حسناً كان ميغيل في عزبة الكولونيل شيكو أرودا بالقرب من إيتابونا. وكان لديه ابنة، صبيّة ظريفة، ولديها ساقان...".

– آه يا جدّي، ألا تزال سيقان النساء تغريك؟

وازداد تشبّث المرأة بكتفي.

– هل تريدين أنّ تجرّبي؟

– انسَ الموضوع، وقل الحقيقة: لم تعد لديك القوة لـ...

– لم تعد لديّ القوة؟ لا أزال رجلاً، لا، بل رجلاً فحلاً قادراً على أن أحبّلك.

عمّ الضحك الحافلة. لكنّ ابن سيارا عبّر عن شكّه: "فقدتَ القدرة على ذلك يا صديقي. ربّما لا يزال لسانك شغّالاً فقط".

تدخّلتُ قائلاً: "نريد معرفة القصّة. هاتِ خبّرنا".

– حسناً... كانت الفتاة مخطوبة لفيلومينو مزارع لدى الكولونيل. كان الزواج سيقام في إيتابونا. بعد مراسم الزواج المدني ذهبا إلى الكنيسة لكنّ الكاهن لم يكن هناك، فعادا إلى المزرعة. كان ميغيل منزعجاً بصورة غريبة لأنّ ابنته كانت لا تزال في نظره "مخطوبة" فقط لا غير، ولذا لم يدعها تذهب إلى بيت زوجها. كان مقتنعاً بتلك التفاهات التي غرسها الكهنة في رأسه الضخم. ذهبت الفتاة ليلاً لتنضمّ إلى زوجها...

– ويقوما بفعلتهما الصغيرة...

– عندئذٍ استشعر ميغيل غياب ابنته ولحق بها، وعندما رآها وزوجها يتضاجعان انقضّ عليهما وصرعهما بضربات المنكوش. قال إنّهما لم يكن لديهما الحقّ في ممارسة الجنس قبل أن يتزوّجا أمام الكاهن. والآن سيُسجن ثلاثين عاماً.

قالت المرأة الجالسة إلى جانبي: "ونعْم الأمر، مع أنّ فعلته تستحقّ عقاباً أشدّ".

"كلّ هذا بسبب الجهل"، قلتُ، "في بلدي الكهنة أيضاً يتحكّمون بكلّ شيء".

وأكدّ ابن سيارا: "معشر الكهنة هؤلاء لا يجلبون إلا النحس".

انضمّ إلى الحديث رجل ضخم خلاسيّ الشعر، وفي وجهه شطب سكيّن هائل: "هناك كاهن جميل الطلعة، الأب سابينو من إبتيرا، هل تعرفونه؟".

"أعرفه جيّداً"، أجاب العجوز.

– لديه اثنا عشر ولداً.

– يبدو أنّ زوجته العجوز تتحوّل إلى بغلة دون رأس[16].

16 ثمة اعتقاد شعبي في البرازيل مفاده أنّه أحياناً تظهر حول الكنائس بهيمة ضخمة تسمّى

بغلة دون رأس ويقال أنها كانت خليلة الكاهن فنزلت بها لعنة وتحولت إلى بغلة تخرج ليلاً. هذه الخرافة ترمز إلى اللعنة التي تطاول كل امرأة تقيم علاقة مع كاهن أو راهب.

– هو الذي ألصق قرباناً بذراع ألجميرو فلم تعد الرصاصات تؤثر فيه، وصار محميّاً.

– لا أؤمن بهذه الخرافات.

– أقفل فمك يا سرجيبانو أنت لم ترَ شيئاً بعد، فكيف بإمكانك أن تقول: "لا أؤمن بهذه الخرافات؟" أنت جديد كليّاً هنا... أنا مرّ عليّ دهر. تجاوزت الخامسة والستين ورأيت أشياء تقشعرّ لها الأبدان.

– هل أنت من إيتابونا؟

– لا، يا بنيّ. أتيت إلى هنا منذ ثلاثين عاماً. سبق لي أن عملت عند أكثر من خمسين ملّاكاً. وكنت نفسي ملّاكاً في ما مضى. ذات يوم سلب منّي مانيه الطاعون كلّ ما لديّ. وعدت عاملاً من جديد. حين وصلت إلى هنا، كانت إيتابونا تدعى تابوكاس ولم تكن بيرانجي موجودة. كانوا يقتلون الناس كأنّهم قرود. وأنا محسوبكم – أخذ العجوز يبصق قارعاً صدره – أُصبت بثلاث طلقات بندقية...

"وكم شخصاً قتلت يا جدّي؟" سأله فتى سيارا.

ابتسم العجوز: "أنت في منتهى الفضول".

توقّف القطار في محطّة أغوا برانكا. كان بعض الصبية يبيعون ثمار جوز الهند الطازجة. اشترى منها ركّاب الدرجة الأولى، والمومس اشترت أيضاً. وبدأت ترتشف حليبها بجرعات صغيرة مرسلة تنهّدات ارتياح عميقة. ثم انطلق القطار مجدّداً، واستؤنف الحديث. أرادت الفتاة أن تقدّم حليب جوز الهند إلى رفاقها في الرحلة.

– سيّداتي سادتي، هل تريدون؟

– شكراً.

التفتت الفتاة صوبي: "وأنت يا صغيري، ألا تريد؟".

– لا، جزيل الشكر.

– لماذا؟ خذ جرعة صغيرة.

آنئذٍ كان العجوز وفتى سيارا يستمعان للشخص الضخم ذي الوجه المشطوب وهو يروي أشياء فظيعة، مقلاً بحركاته رافعاً صوته: "كان ذلك زمن القتل بلا حساب... لم يكن بإمكان الدكتور أن يخسر في

الانتخابات، وكنت أنام عرضاً عند باب حجرته والمسدّس في يدي. ما من ظلّ رجل كان يعبر. كانت تلك أيام زمان...".

– اليوم لم يعد القتل شائعاً. عاد الأمان...

توقّف القطار في ريو دو براسو ثلاثين دقيقة لأعمال الصيانة. نزلنا كلّنا تقريباً. كانت هناك حانة تبيع القهوة والخبز. أخذ الركّاب يتجمّعون من حولها. قدّم إليّ العجوز فنجان قهوة. ثم بدأ يستجوبني.

– عند مَن ستذهب للعمل يا بني؟

– عند مانيه الطاعون.

– ذاك الحقير! سيجعل منك رَكوباً. كم سيدفع لك؟ ألفاً وخمسمئة ريس؟

– لا أعرف. سيعلمني بذلك المسؤول هناك.

– من يعمل عنده لا يتبقّى معه فلس واحد. فيسانت عمل هناك آه! نعم. فيسانت.

فيسانت هو الرجل المشطوب الوجه.

– سبق واكتراك مانيه الطاعون، ماذا تقول عنه؟

– ابن شرموطة... نعم. عملت لديه ثلاث سنوات. حين رحلت، هل تعرف كم قبضت؟

ابتسم العجوز.

– خمسة آلاف ريس. والأحقر منه جوان فرميليو، أمين الصندوق.

صفّر القطار. عدنا بسرعة إلى الحافلة. قال الفتى من سيارا: "أنا سأذهب للعمل عند الكولونيل شيكو فييرا. من يعرف شيئاً عنه؟".

– لا يزال أفضل من مانيه الطاعون.

– كلّهم متشابهون...

كانت الفتاة تنظر باهتمام إلى الشطب في وجه فيسانت، فلاحظ ذلك.

– هذا الجرح يا جميلتي، هذا بسبب سمراء جميلة مثلك. حصلت الحادثة في إيتابونا. والشطب الذي ترينه تسبّب فيه رجل، لكنّه ذهب إلى القبر.

– هل قُبِضَ عليك؟

– لا. كان الدكتور آنذاك في الحزب الحاكم. ورجال الشرطة لم يفعلوا بي شيئاً.

– تبدو هذه البلاد جديرة بالاهتمام. في سيارا، قالوا لي إنّ المال كثير في هذه الناحية...

– مال كثير... كان هناك مال كثير منذ سنتين. ارتفع سعر الكاكاو إلى أربعين ألف ريس. كان الكولونيلات يدفعون ثمنه، هذا صحيح. وكنّا نقبض خمسة آلاف ريس في النهار.

– هل استطعت أن تقتصد بعض المال؟

– دعك من هذا... كلّ شيء ازداد سعره: اللحم المقدّد، والمانيهوت[17] والفاصولياء. لا أحد مرتاح. بالنسبة إليك الأمر سيّان سواء انخفض سعر الكاكاو أو ارتفع. وللكولونيلات الأمر سيّان. أنا أفضّل أكثر أن ينخفض...

17 جنس جُنيبَات يستخرج من جذورها دقيق نشويّ.

التفت العجوز إلى ابن سيارا: "جئت من سيارا فيما تُرسَلُ الآن بالضبط أموال إلى هناك... الصحف تحدّثت عن الموضوع. قرأت بهذا الشأن. الحكومة تؤكّد أنّه لم يعد خطر إفلاسها قائماً".

– الله وحده يعرف. يلتهمون المال ونحن نموت جوعاً. لسنا نحن من نملك المال. زوجتي توفّيت على الطريق، وابنتي بقيت في شارع "الأخطاء

السبع المميتة".

– وما قصّة هذا الشارع؟

– إنه شارع هؤلاء الش...

راح يشير إلى المومس قربي.

كان يقول ذلك كله ببرودة وإذعان كأنّه أمر طبيعي. حكّ فيسانت رأسه.

– هذا مقرف، هذا شيء لا يطاق.

قال العجوز بنبرةٍ حكيمة: "هكذا تجري الأمور. خذها منّي".

شدّت الفتاة على ذراعي وسألتني فجأة وهي تهمس في أذني: "هل تريد أن تسمع قصّتي؟"

واتكأت على صدري.

وصل القطار إلى محطّة سيكييرو-دي-إسبينيو.

ركب العجوز والفتاة الحافلة الصغيرة المتجهة إلى بيرانجي. أما فيسانت وابن سيارا وأنا، فانطلقنا مشياً على الأقدام نتبادل أطراف الحديث. كانت بيرانجي على بعد نصف فرسخ من المحطة. عرفت أن

ابن سيارا سيعمل في مزرعة قريبة، وأن فيسانت يحرس قطعاناً في بلدة على بعد عشرة فراسخ من هنا، وتدعى بافوريه.

– الرجال عددهم قليل هناك. والنساء شبه منعدمات في الأصل. إلا إذا كنت تريد أن تضاجع نمراً. هناك عائلة أو عائلتان على الأكثر. فكّر أن رجلاً في الستين كان يريد أن يتزوّج بصبيّة في التاسعة. أنا من اعترض على الأمر، فهو مهزلة. ولكنّ العجوز المسكين لم يرَ أنثى منذ خمس سنوات.

– ماذا تقول! شيء مقزّز...

نظر إليّ فيسانت وهو يبتسم.

– مهلك يا صاحبي، لم ترَ شيئاً بعد، هنا ستتعلّم أشياء وأشياء.

كانت الطريق تحاذي أحد مجاري النهر. على الضفّة الأخرى حقول، والمراكب تنزل محمّلة بأكياس الكاكاو. أشرت إلى الأشجار المنحنية تحت ثقل الثمار الصفراء.

"هل هذه أشجار الكاكاو؟" سألتُ.

– ألم ترها من قبل؟

”ولا أنا“، قال ابن سيارا، ”هذه هي المرّة الأولى التي أرى فيها الكاكاو“.

– أمّا أنا فولدت هنا، أنا من هذه البلاد... أمّا أنتم الآتون من الشمال، فجميعكم تعتقدون أنّكم ستصبحون أغنياء، أليس كذلك؟

– ليس أنا، ما إن يزول الجفاف، حتى أعود إلى الديار.

– وأنت، يا سرجيبانو؟

– لا أعرف... كنت أعمل في أحد المصانع. الآن سأصبح مزارعاً.

تذكّرتُ جملة روبرتو: ”لكن ذات يوم...“.

– ذات يوم... ماذا؟ ستصبح غنيّاً؟

– لا أعرف...

حين وصلنا إلى منتصف بيرانجي لفت فيسانت انتباهي إلى رجلٍ.

– انظر، هذا ألجميرو، معاون الكولونيل ميساييل.

– سأذهب لرؤيته.

– وداعاً يا سرجيبانو!

– الوداع يا أصدقاء.

اقتربت معرّفاً عن نفسي.

– هل الكولونيل هو الذي أرسلك؟

– نعم.

– هل قال لك كم ستكسب؟

– لا.

– ثلاثة آلاف وخمسمئة ريس في النهار. هل يناسبك؟

– ماشي الحال.

– هل تعرف عملك؟

– لا، وصلت للتوّ من سرجيب.

– نحن من المنطقة نفسها. في المزرعة، سيطلعك الآخرون على عملك. هناك، سأريك عملك. لا تعرف الطريق أليس كذلك؟ إذاً، اذهب برفقة أنطونيو باريغينيا.

– ومن يكون؟

– إنه بغّال. أتى ليحّمل الكاكاو، وينطلق مجدداً حاملاً معه اللحم والفاصولياء للشباب. انتظرني. سأعود معه.

انتظرت نصف ساعة كاملة لكي يعود ألجميرو مع أنطونيو باريغينيا. وذهبنا إلى "عزبة الأخوّة" يتقدّمنا اثنان وعشرون حماراً. في منتصف الطريق، تجاوزنا ألجميرو، ممتطياً بمهارة بغلاً رماديّاً. كنت أذهب غير مبالٍ بمصيري، معتقداً، ربّما، أنّ باريغينيا، الصامت الذي قلّما يمتلك نخوة، لن يتفضّل عليّ بوجبة غداء.

كانت العزبة تبعد فرسخين ونصفاً عن بيرانجي. بعد مسيرةٍ طويلة رأينا الفروش الخشبية التي يُجفَّف فيها الكاكاو، والدارة المزدانة بلافتة كتب عليها:

عِزبة الأخوّة

كان الجوع ينهش أحشائي نهشاً ورحت أتذكّر الفتاة التي رافقتني أثناء الرحلة.

لم يقدّم إليّ أنطونيو باريغينيا شيئاً يؤكل في ذاك النهار. بل كان أونوريو من فعل ذلك. ذهبت لأسكن معه في كوخ من القش بغرفة واحدة تقوم مقام غرف النوم والطعام والمطبخ. قال لي كولودينو: "هنا وحدها المراحيض فسيحة".

وفتح ذراعيه في حركة تشمل المكان من حوله.

– أنت في قلب الريف...

كنا نسكن أربعتنا في الكوخ. أونوريو العملاق بفمه الزنجي الذي ينفرج دوماً عن ابتسامة تبين أسنانه البيضاء، كولودينو النجّار الذي كان يصنع للكولونيل القوالب الخشبية لتجفيف الكاكاو، جوان غريلو الخلاسيّ النحيل الذي كان يعرف قصصاً كثيرة.

نظروا إليّ دون ارتياب. قدّم إليّ أونوريو قطعة لحم مقدّد والقليل من الفاصولياء السوداء وحبوب الجاكية[18]. أكلنا بصمت. ثم دَوْزن كولودينو غيتاره وافتتح جوان غريلو الحديث.

18 جنس شجر من فصيلة الخبازيّات ينبت في المناطق الحارّة.

– هل عرفت أين ستعمل؟

– لا.

– في رأيي، ستشتغل في حقل الكاكاو القديم الذي يملكه جوان إيفانجيليستا. أونوريو يعمل هناك.

حين أخبرتهم قصتي لم يندهشوا. قال كولودينو: "من وقت إلى آخر نصادف شاباً كان ثرياً. هنا في الجنوب، يأتي كثيرون من سيرجيب".

– وأنت، من أين؟

– من العاصمة. جوان غريلو من سرتاو، وأونوريو من هنا بالذات.

كان أونوريو يتبختر بسترةٍ مريعة موشّاة.

– هه! ما هذه السترة! تليق بالحانات!

– هل ستذهب إلى بيرانجي السبت؟

– أتسمح...

– وبأيّ فلوس؟

– فلوس الكولونيل.

ذهبت بالفعل للعمل مع أونوريو. كنّا كثراً في المزرعة الهائلة. أوراق الكاكاو اليابسة تفترش الأرض حيث تستدفئ الأفاعي في الشمس بعد أمطار يونيو الطويلة. الثمار الصفراء تتدلّى من الأشجار أشبه بفوانيس أيّام زمان. هذا المزيج المدهش من الألوان يجعل كلّ شيء جميلاً وسحريّاً ما عدا عملنا المتعب. في الخامسة، بعد شحذ السكاكين الفولاذيّة عند باب المخزن، نبدأ قطع قواقع الكاكاو. في الخامسة صباحاً، تزوّدنا جرعة العرق الرديء وصحن الفاصولياء بالطاقة اللازمة للعمل طوال النهار.

علّمني أونوريو فنون المهنة. كنّا رفيقين متفاهمين، في الظلّ اللطيف لأشجار الكاكاو حيث الشمس لا تنفذ أشعّتها. بدأت قدماي تكتسيان بقشرة سميكة تسبّب فيها صمغ الكاكاو، ولم يكن الاستحمام في مياه النهر لينتزعها ما يجعل ارتداء الحذاء عذاباً حقيقياً. وعرفت تدريجاً قصّة ذاك الأسود العملاق بعينيه العذبتين كعيني حمل، وأسنانه الضاحكة ويديه الضخمتين الفاتكتين.

كان أونوريو بطل الكمائن والقتل المأجور. وهكذا غدا واضحاً السبب في أن الكولونيل لم يطرده رغم تسعمئة ميلريس التي يدين بها لأمانة الصندوق، بل كان يمدّه بالمال من أجل نوبات التافية في بيرانجي.

كان أونوريو ابن بيرانجي المولود في زمن الإثراء السريع والاغتيال بلا ثمن، لا، بل إنّه ترعرع وسط الإعدام بالرصاص والقتلى. مَثُلَ والده أمام المحكمة مرّات عدّة وانتهى مقتولاً بضربات بلطة. منذ سنّ الثانية عشرة وأونوريو يقتل الناس مصوّباً مسدّسه من مسافة بعيدة جدّاً. هكذا كبُر. كم من الناس قتل، هو نفسه يجهل. ثم جاء زمن استصلاح مزارع الكاكاو. تضاءل عدد القتلى لكنّهم – من كان ليتوقّع ذلك؟ – لم ينقطعوا. ولا تزال الطرقات حتى اليوم مزدحمة بصلبان مجهولة.

يكمن القنّاص وبندقيّته في ليلة ليلاء محتجباً خلف شجرة جوافة وحيدة على حافة الطريق ويصوّب طلقة واحدة لا غير على المسافر العائد من القرية، فيسقط قتيلاً. ثم يذهب القنّاص ليخبر مستخدمه أنّ المهمة انتهت، فيُنقَدُ مئة ميلريس التي وُعد بها. وفي اليوم التالي، يُعثر على الجثة وتدفن في الموقع نفسه. ويتابع كل شيء مجراه كالعادة.

كان أونوريو خبير كمائن، وكان للكولونيل ميساييل أعداء لا يحصون... لا أعرف هل يشعر الكولونيل بالندم. أما أونوريو، فلا. كان ضميره نقياً وصافياً كماء الينبوع. كان رفيقاً طيّب المعشر، وكنّا نقدّره كثيراً.

كان يعرف قصصاً عن إثراء أشخاص، وعن مؤامرات قذرة، ويروي لنا في الليالي المقمرة مع جرعات التافية قصصاً غامضة لم تعرف بها العدالة. ونظراً إلى كسله، لم يمرّ يوم لم يشتكِ ألجميرو منه، فينظر إليه أونوريو بعينيه العذبتين قائلاً: "طفح بي الكيل من هذا الصبيّ".

كان يحدث صخباً هائلاً لدى مروره في مواخير بيرانجي ويتباهى بأنه لا يدفع النقود للنساء.

لكن، حين تنقصنا السيولة، كان يذهب لرؤية الكولونيل طالباً منه المال بصوتٍ متوسّل والسكين المسنّن في يده، فيصرخ به الكولونيل واصفاً إيّاه بالتنبل، لكنّ أونوريو لا يعود أبداً فارغ اليدين.

كان جوان فرميليو، وكيل بيت المونة، يخشاه. ذات يوم رفض أن يملأ كيس أونوريو متذرّعاً بأنه يمتثل لأوامر الكولونيل الذي صادف وجوده في المدينة. تظاهر الرجل الأسود بالحفاظ على رباطة جأشه ثم قفز فوق

منضدة المبيع في المخزن، وزان بنفسه حصّته من الفاصوليا واللحم. بعدئذٍ فتل بيديه الرهيبتين السوداوين الأنف الأبيض والرفيع لفرميليو، ورحنا نضحك مثل المجانين.

كان أونوريو يجيد أيضاً الغناء. في المساء، يصدح صوته مالئاً الصمت، ويرافقه كولودينو على الغيتار.

كانوا يتحدّثون عن فتيات بيرانجي. وكان لكلّ من العمّال عشيقة. كان بعضهم يتزوجون زواجاً دينياً وبعضهم الآخر يساكنون خليلاتهم، وكانت المساكنة أكثر شيوعاً من الزواج. هكذا، تولد جحافل من الأطفال الذين سيساعدون أهاليهم في حقول الكاكاو. لم يكن العمّال يعرفون القراءة إلا في ما ندر. بالإمكان القول إنّنا كنّا الوحيدين، أنا وكولودينو، اللذين ذهبا إلى المدرسة وتلقّيا تعليماً، وكنّا نقرأ ونكتب للجميع.

لسنوات خلت، بذل أونوريو كلّ ما في وسعه ليتعلّم كتاب الألفباء لكنّه لم يفلح في تجاوز عقبة الحروف الصوتيّة. كان يرغب في تعلّم القراءة أملاً في شراء القصص الشعريّة عن رجال العصابات لوكاس دا

فيرا، وجوان تليادو، ولمبيون[19]. كان جوان غريلو الملقّب بـ"الدكتور" يعرف هذه القصص ويرويها لنا ليسلّينا.

19 هؤلاء الثلاثة تحوّلوا إلى أبطال شعبيّين، وزعيم العصابات لمبيون أشهرهم، إذ رَأَسَ عصابة من خمسين رجلاً مسلّحاً، لكنّ الشرطة قضت عليه في تموز/ يوليو 1938 مع عشرة من أتباعه وقُطعت رؤوسهم.

أراد أونوريو دوماً أن يتمكّن من تعلّم الألفباء. عبثاً كان كولودينو يقوم بدور المعلّم فالأحرف لا تنفذ إلى رأس ذاك العملاق.

يقول له جوان غريلو، الخلاسيّ الداكن، مازحاً: "هذا لأنّك زنجي يا أونوريو. نحن البيض بارعون في هذه الأمور. أنا الدكتور جوان نابوكو دا سيلفييرا ناسيمنتو، الملقّب بجوان غريلو".

– هه! ومن تكون أنت يا زنجيّ؟

– أنا أبيض، ما من شك في ذلك. لو كنت أسود لدقيقة فقط، لوضعت حبلاً حول عنقي وشنقت نفسي.

يضحك أونوريو بصوت عالٍ فيما ينقر كولودينو على غيتاره نقرات شجيّة مغنّياً الحنين لأمكنة أخرى وخلاسيّات في أثواب فضفاضة معرّقة بالورود.

في التاسعة مساء، يرين الصمت على كلّ شيء فنتمدّد على الألواح الخشبية التي كانت بمكانة أسرّة، وننام نوماً لا أحلام فيه ولا رجاء. كنّا نعرف أنّنا في اليوم التالي سنواصل جني الكاكاو لنكسب ثلاثة آلاف وخمسمئة ريس ويسلبها منّا بيت المونة...

في أيّام السبت، نذهب إلى بيرنجي ونمارس الجنس. كان بعضهم يمضون أشهراً دون أن يخرجوا من العزبة مشبعين غرائزهم مع البغلات، متنافسين على مينيرا، عرّابة القطيع، التي كانت متقلّبة الأطوار. أمّا الصبية، وكانوا لا يزالون حديثي السن، فبدؤوا اختبار شهواتهم مستعينين بالعنزات والغنمات.

لم يكن أحد يطالب بشيء. بدا كلّ شيء منتظماً، وكنّا نعيش، إن جاز القول، خارج العالم ولا أحد يهتمّ لبؤسنا. نعيش لنعيش. كانت تلوح لنا في الأفق البعيد البعيد فكرة تقول إنّ الأشياء قد تتغّير ذات يوم. بأيّ طريقة؟ لا نعلم. لن يتسنّى لنا أن نصير جميعنا مُلّاكاً. ونسبة أن يغتني أحدنا كانت واحداً على ألف. وحده ألجميرو استطاع في "عزبة الأخوّة" التوصّل إلى شيء ما. اشترى الكولونيل له قطعة أرض تساوي ثلاثين كونتو

مسدّداً ثمنها مع كلّ موسم. إذاً، كيف السبيل للخروج من هذا الوضع البائس؟ كنا نفكّر أحياناً في وسيلة ما، خصوصاً كولودينو.

كان أونوريو يردّد: "ذات يوم سأقتلهم جميعاً، كلّ الكولونيلات، ونتقاسم الأملاك".

فنسترسل في الضحك. لا أعرف لماذا لم يكن الثراء يغرينا البتّة؛ جلّ ما نتمنّاه نزرٌ من الرخاء وسط بؤسنا العميم.

كنّا أقرب إلى البهائم منّا إلى البشر، وكان قاموسنا مختزلاً للغاية تتسيّده الكلمات البذيئة. بالنسبة إلي، في تلك المرحلة، كما للعمّال الآخرين، لم أكن أعرف شيئاً عن الصراع الطبقي. ولكنّنا كنّا نحدس بوجود شيء من هذا القبيل.

ونفكّر في عبارة أونوريو حتى مجيء نهار السبت. عندئذٍ كنّا نذهب إلى بيرانجي.

بيرانجي

أحضر جوان غريلو المنشور وقرأتُه بصوت عالٍ:

انهضوا أيّها الشباب وافرحوا!

ندعوكم للمجيء إلى محلّة بيرانجي الساحرة حيث قاعة

سينما "أليانس" للاحتفالات

فتضيفون البهجة على العروض التي ستقدّمها فرقة "الأشقياء المرحون" الشهيرة، تتخلّلها نزهة وحفل راقص في الهواء الطلق، وثمن البطاقة ألفا ريس. تبدأ التسالي منذ الصباح. بعد الظهر سيقام مزاد علني وكرمس وتومبولا[20]. وفي المساء سيعرض الفيلم الأكثر من بديع:

20 الكرمس هو احتفال رعائي والتومبولا هو نوع من اليانصيب.

نسور زماننا

الخدمة في البار والمطعم ممتازة. نعلمكم أيضاً بأنّ شاحنة ستقلّ صباحاً بتاريخ السادس منه فتيات حسناوات والفرقة الموسيقيّة "Sélect" [سيليكت] لإضافة متعة أكبر على المهرجان وضمان نجاحه.

لمن يرغب في تزيين هذه الاحتفالات بحضوره، نذكّره أنه يكفي التوجّه إلى الحافلة رقم 51 التي ستكون متاحة لكلّ الميزانيّات.

نأمل أن تتحفونا بالأزهار والموسيقا والضحكات.

عندما أنهيت القراءة، هتف أونوريو: "عظيم! سأدشّن سترتي".

اتّفقنا على الذهاب معاً، أنا وأونوريو وأنطونيو باريغينيا وجوان غريلو ونيلو وجوان فرميليو وآخرون. وكان كولودينو سينضمّ إلينا مصطحباً خطيبته ماغنوليا، أجمل خلاسيّة في الضواحي.

عمل كولودينو منذ زمن طويل في تجهيز الفروش لتجفيف الكاكاو، وفي العزبة، تعرّف إلى ماغنوليا، ابنة السيدة جوليا، وهي امرأة عجوز في الخمسين. "اكتُريَت" جوليا وابنتها لتكديس حبوب الكاكاو. كانت ماغنوليا جميلة بحقّ. لم تكن تشبه بطلات الروايات الريفية التي ألّفها كتّاب لم يزوروا مزرعة في حياتهم. كانت يداها متيبّستين متقرّحتين وقدماها ضخمتين. يستحيل أن يعمل أحد في حقول الكاكاو ويحافظ على قدمين نحيفتين. كان نهدا ماغنوليا ثقيلين ويبرزان غالباً من ثقوب ثوبها البالي. لكن لا أحد منّا كان يعير الأمر انتباهاً فماغنوليا خطيبة

كولودينو وكنّا نحترمها. ربّما كانت تبدو أكبر سناً بقليل نسبة إلى سنواتها العشرين. المهمّ أنّ كولودينو يحبّها ويرتجل على الغيتار أغانيَ مهداة إليها. في المساء، كنّا نمرّ أحياناً ببيت جوليا العجوز لاحتساء جرعة تافية والدردشة قليلاً. لكن لا يتبادر إلى ذهن أحد أنّ ماغنوليا تجيد فنّ الحديث. فهذه الموهبة غير موجودة في العزبة. كانت تعرف كلمات بذيئة وتتلفّظ بها كلّ لحظة. وإذا وضعنا جانباً واقعة أنّها تستحمّ عارية في النهر، لم تكن تعد أحداً بشيء، لكنّ كولودينو كان ليسعد معها دون أدنى شك.

لكن في مزارع الكاكاو كان هناك دوماً ثمّة ما يدعى ابن الكولونيل، وميزته الدراسة في جامعات باهيا فضلاً عن جهله وغبائه.

كان لمانيه الطاعون أيضاً ابن شهير يدعى أوزوريو ويتلكّأ في جامعة الحقوق منذ سنوات.

كانت بيرانجي مؤلفة من شارع وحيد يمتد على كيلومترين تقريباً، ووسطه تماماً قاعة الاحتفالات سينما "أليانس" وقد أقيمت بجوارها أكشاش المزاد العلني والكرمس. كنت تجد أناساً كثيرين من البلدات

والمزارع المجاورة، وتجّاراً عرباً يتجادلون بينهم، وآنسات بيرانجي وفتيات الريف مخفضات الأعين في أثواب بطلت موضتها وقد خضّبن خدودهن بشكل مرعب في سعي فاشل منهنّ لمحاكاة زينة نساء الطبقة الراقية. كانت الأوركسترا، وتضمّ فرقة من الزنوج الذين لا يجيدون العزف، تبثّ البهجة في الحضور. وكان مصوّر متجوّل يظهّر الصور خلال خمس عشرة دقيقة.

أخذ الناس يتحدّثون عن مجيء فرقة المهرجان: "الأشقياء المرحون". بعضهم يقول إنّها لن تأتي بسبب خلافات داخل اللجنة. وآخرون لا يصدّقون ذلك متلفّظين كلمات بذيئة ومطلقين الضحكات.

– أمر مزعج. ربّما لن تأتي الفرقة.

– طيّب، إذا لم تأتِ أريد استرجاع ألفي ريس.

كان هناك مزارعون يمرّون ومسدسهم ظاهر تحت ستراتهم، ويندر أن ينتهي احتفال دون شجار. كان الدركيّون الأربعة الذين يتولون الحفاظ على أمن الجماهير الممثّلين الفعليّين عن السلطة البرازيلية. وكانوا يشربون أكثر من أيّ كان ويقرصون الخلاسيّات الصغيرات.

– دعني، لا تتحامق.

– رويدك يا حلوتي، لا تكوني لئيمة.

– معي لن يفيد الأمر، حلّ عنّي يا خنزير.

– أنا قدّيس صغير يا ظريفتي.

– اذهب وضاجع أمك...

– أنت مجرّد حمارة، مسكينة بلهاء.

وكانوا يواصلون القرص والمزاح وهم يدخّنون سجائر بخمسين ريس ويملؤون الجوّ بصخب ضحكاتهم.

أمّا عائلات الأطباء والتجار الأثرياء، فتجلس على حدة، على كراسيّ موضوعة وسط الأرصفة. وقد أقيم للطبقة الراقية حفل راقص في منزل الدكتور دومينغوس الصيدليّ. لكنّ الحفل لن يبدأ إلا في العاشرة، وأراد الأغنياء بادئ الأمر أن يستفيدوا أيضاً من احتفال الفقراء.

أخذ الناس يشترون بطاقات لحضور الفيلم والحفل الراقص في الهواء الطلق. بين فينة وأخرى، تسمع بداية شجار تتخلّله صرخات ومطاردات ويسعى الأقل ثملاً إلى إنهائه.

لدى وصولنا بدأ المزاد العلني. استطاع كولودينو شراء لعبة شقراء لماغنوليا. صعد السيّد جوزيه رودريغز على الطاولة مواصلاً الصراخ حتى بُحّ صوته: "من يزايد؟ من يزايد؟ دمية تستطيع إغماض عينيها بثمانية آلاف ريس، ليس ثمنها بغالٍ... من يزايد؟".

لا أحد كان يزايد. احتفظ كولودينو بالدمية ودفع ثمنها بأوراق نقدية قديمة ممزّقة وملصقة أجزاؤها بالصابون.

وصلت فرقة "الأشقياء المرحون" فأحاط كلّ الحشد بها. راحوا يرقصون ويغنّون وكان حامل الراية يصنع بها العجائب. وأخذ الحضور يغنون اللازمة صوتاً واحداً:

هيّا نمرح...

هيّا نمرح...

وجوان غريلو يوزّع قرصاته يميناً وشمالاً وسط الحشد. اعترضت عجوز قائلة: "قرصوني في مؤخّرتي".

– تعالي هنا! ضاجعيني.

– ألا تخجل؟

– عجوز شمطاء...

ويواصل الجمهور اللازمة:

هيّا نمرح...

هيّا نمرح...

بدا حامل الراية كأنّ جنّاً يسكنه. كان يؤدّي رقصات تقليدية أفريقيّة مطبوعة في دمه كإرث من الأسلاف. ينحني كليّاً مع الراية ثم ينهض فجأة على رؤوس أصابع قدميه اللتين لا تكادان تلامسان الأرض. ما عاد يرى أحداً وقد استولى الرقص على كيانه بكليّته. كنتَ تشعر أنّ الكونغو في هذه الرقصة، والصحارى، والليالي المحفوفة بزئير الوحوش، وأوريكا– لا[21]، وأشياء كثيرة.

21 إله شعائر العبادة الأفريقية–البرازيلية، وتربط هذه الديانة بين المعتقدات الأفريقية والمذهب الكاثوليكي.

توقّفت الفرقة الموسيقيّة. وعلت صرخات:

يعيش "الأشقياء المرحون"

أحسنتم!

ذهبت الفرقة لتزور منازل الأغنياء حيث كانت هناك مرطبات وحلوى. واصل الناس نزهاتهم منتظرين عرض الفيلم والحفل الراقص. بعضهم رافق أعضاء الفرقة. ذهب أونوريو ليحتسي البيرة في حانة السيّد إسحاق الذي تتحوّل بدءاً من العاشرة إلى ما يشبه ملهى ليليّاً.

كان أونوريو يستعرض سترته الشهيرة الزرقاء الموشّاة، وربطة عنق مصنوعة من شريط قبعة، وينتعل حذاء ضخماً يوحي بأنّ ارتداءه يتطلّب جهداً فائقاً. توقّف أمام باب أحد المنازل وراح يثرثر مع مومس معروفة. حين عاد، كان منتفخاً زهواً.

– دعتني ماريت لمضاجعتها اليوم...

– عظيم... لقد تسبّبْت لي في السيلان[22].

22 أو التعقيبة، من الأمراض المنتقلة جنسيّاً.

– أنت غاضب يا جوان غريلو لأنّها تريدني. كنتَ قد وقعت في غرامها حتى لو بصورة عابرة.

– أنا! أحببت... هذه المجنونة؟ لا أرجوك! هي من قامت بأعمال السحر لكي تحصل عليّ.

أطلق أونوريو قهقهات مجلجلة على سبيل الإجابة.

– أتعتقد أنّ ما أقوله غير صحيح؟ اسألْ أنطونيو باريغينيا... رأى ما فعلتْه: زيت النخيل وشعرة من تحت الإبط وطحين المانيهوت...

– لا تتفوّه بالحماقات أيّها الخلاسيّ الأهبل.

– سترى النتيجة أيّها الزنجي الغبي.

ماريت خلاسية شابّة في الثامنة عشرة. لكن بينها وبين زيفا الخمسينيّة لم يكن هناك من فرق: الوجه الذابل نفسه والساقان المليئتان بالندوب عينهما.

امتلأت السينما بالناس. احتشد بعضهم وقوفاً، ولو لم يكونوا معتادين البراغيث والبق لما استطاعوا رؤية الفيلم. سبق لهم وبدؤوا الحكاك الشديد. كنّا نحتلّ صفّاً شبه مكتمل. لم يتبقَّ سوى مكان جلس فيه جنديّ قرب ماغنوليا. أخذ الصبيان يضربون على الكراسي وقد نفد صبرهم. وسرعان ما أصبحت الضجّة مرعبة. إلى أن بدأ الفيلم أخيراً وكان رديئاً. أخذت أعين الجمهور تصاب بالذهول أمام ترف نيويورك. لم يكن أونوريو سعيداً.

– لا أحبّ السينما. ما يروق لي هو السيرك.

– لن تقول إنّك لست زنجيّاً. أنا يعجبني الفيلم. فهو مصنوع في أوروبا.

– يا لتفاهات تلك البلدان...

وأبان أونوريو عن تكشيرة مزدرية. ثمّ سأل: "كيف يشغّل هذا الفيلم؟".

– أيّها الزنجيّ الأصيل! ألا ترى أنّ هناك شخصاً ما خلف الستارة وأن ظلّه هو ما نراه؟

كانت ماغنوليا تتململ على كرسيها بعصبيّة. سألها كولودينو عمّا بها.

"لا شيء"، أجابت. لم تكن راغبة في الاعتراف بأنّ الجنديّ كان يحاول مداعبتها.

لكن الجنديّ واصل سعيه. وقالت ماغنوليا أخيراً: "كولودينو، هذا العسكريّ يتحرّش بي".

نهض كولودينو وأمسك به: "هل تظن أنّك تعبث مع امرأة رجلٍ خوّار يا ابن الشرموطة؟".

وفرقعت الصفعة. سقط الجنديّ عن الكرسي. ثم نهض وهو يترنّح شاهراً حربته.

– أريد أن أريك كيف تحترم ممثلاً عن السلطة يا منحطّ...

– واحد منيوك!

أسقط أونوريو الجنديّ بضربة من قبضته. وتعاركا في الخارج. أخذ الرجال يتسلّقون الكراسي ليتابعوا الشجار. اقترب جنديّ آخر من كولودينو.

– إلى السجن!

– لن أذهب.

– قلّلت من احترام شرطيّ.

– كان يحاول أن يتحرّش بخطيبتي.

اقترب أونوريو منه: "كان ثملاً. ثم هذا يكفي، هل سمعت؟"

وجد الحارس أنه من الأجدى له أن يرحل. وتواصل عرض الفيلم.

ذهبنا لرؤية الاحتفال عند الدكتور دومينغوس. كان هناك حشد في الخارج، في الهواء البارد: مزارعون وفتيات فقيرات، بعض الوكلاء

التجاريّين الذين لم تتمّ دعوتهم متدثّرين ببذلاتهم البيضاء ويأملون أن ينجحوا في الدخول. كانوا ينظرون إلى الراقصين بنظرات متوسّلة وحاسدة. لم تكن الإنارة الكهربائيّة موجودة إلا في السينما والبار. كان منزل الدكتور دومينغوس مضاءً بزيت الكاز، وكان يخطف أبصارنا ويؤذيها. كانت إحدى الآنسات المتلهّفات لعريس تعزف بخفّة على بيانو ألماني. كانت في منتهى الهزال، ويبدو أنّها تجاوزت منذ زمن طويل عتبة الثلاثين لكنّها قالت بصوت خافت منحلّ إنّها ستبلغ الثالثة والعشرين في أغسطس المقبل. كانت تنتظر خطيباً، وبانتظار مجيئه، تمضي الوقت بالعزف على البيانو في الاحتفالات التي تقيمها المحلّة. بين فينة وأخرى، يأتي أحد الفتيان المتعاطفين مع وضعها ويدعوها للرقص فتنقضّ على المراقص وتستسلم له مغمضة العينين، مفكّرة بلا شكّ في أشياء كثيرة ماجنة.

لكنّها كانت في المقابل تعمل في إحدى مدارس البلدة وتضرب الأطفال القلائل الذين يرتادونها، فيما تكرّس كلّ وقتها وهي تبتسم للشبّان

المارّين. كان الصبية يكرهونها، ويلقبّونها بـ"الهيكل العظميّ". أعتقد أنّها كانت لتعطي بقيّة عمرها لقاء ليلة تمضيها مع رجل.

كان ألجميرو يرقص أيضاً وهو يفرغ أكواب البيرة الواحد تلو الآخر، فرئيس العمّال يهوى احتفالات الأثرياء هذه وينتفخ زهواً لأنّهم يحسنون معاملته، مع أنّه كان عاملاً مثلنا وأمّيّاً. كان منذ أربعة عشر عاماً يعمل لدى مانيه الطاعون. نجح في شراء مزرعة بثلاثين كونتو. أدانه الكولونيل المال راهناً المواسم التي يجنيها. كان كلّ طموحه ينصبّ على الثراء. كنّا نكره الكولونيل ونحتقر ألجميرو، ونشعر أنه ليس منّا. أنا المتحدّر من عائلة ثرية شعرت نفسي أقرب إلى العمال منّي إلى ألجميرو المتحدّر من أجداد وأجداد من العبيد. جلده نحاسيّ اللون، شعره فاتح أجعد، يرتدي بذلة من الكتان الأزرق وينحني ويبتسم دائماً لهؤلاء البورجوازيين أو يضحك لهم مأخوذاً بأحاديثهم. نحن في الخارج نبتسم هازئين من تصرّفاته. فُتحت قناني شمبانيا في غرفة الطعام فتوقّفت الموسيقا وهرع الراقصون متزاحمين على الشراب. بصق أونوريو جانباً: "أفضّل كأس عرق".

وذهبنا لنشرب.

غادرَنا كولودينو وماغنوليا سائرين باتجاه العِزبة. أمّا نحن، فذهبنا إلى "الملهى الليليّ". لدى دخولنا رأينا ملصقاً كتب عليه: "أضواء وأزهار ونساء". كان هناك مصباحان كهربائيّان، وبعض الأزهار الاصطناعيّة الرديئة، ونحو خمس عشرة إلى عشرين مومساً في المكان، ورجال ثملون وتافية قدر ما تشاء، وموسيقا جاز تافهة... لكنّنا وجدنا ذلك مثالياً. في إحدى الزوايا التي فصلت عن باقي القاعة بحاجزٍ روّاد يلعبون الروليت. وخلف طاولة الشراب، وقف السيّد إيزاك يراقب الزبائن. كان يعرف قدرة كلّ واحدٍ على الشرب. وحين يدرك أنّ الزبون أنفق بالضبط ما كان في حوزته من مال، يأمر الخدم ألا يقدموا الشراب إليه ثانية. بإمكان الزبون أن يستميت في مناداة الخدم لكنّهم يصمّون آذانهم عنه. وقصّة الاستدانة تلك لم تكن تنفع مع "الخواجا إيزاك".

وصلت ماريت برفقة مومس أخرى وجلست إلى طاولتنا.

– اشترِ لي كوب بيرة، يا أونوريو.

– أنا مفلس يا جميلتي.

– لا تتباله! ادفع.

دفع أونوريو ثمن البيرة. سألتني الفتاة الأخرى هل أتذكّرها. وبما أنني عجزت عن ذلك، ذكّرتني.

– كنّا في الرحلة معاً، يا صغيري.

– آه! نعم صحيح.

– نسيتني، أليس كذلك؟

– لم أرك ثانية.

– كان لديك عمل كثير؟

– إلى حدّ ما.

– واليوم جئت تُنفق ما تبقّى معك من فلوس.

– بالضبط. وأنت، هل يعجبك المكان هنا؟

– لا بأس، على الأقل نسدّ جوعنا.

– هذا ليس بالقليل...

– في سرجيب، لم نكن نستطيع سدّ جوعنا.

مرّرت يديها في شعري الأشقر: "أنت من عائلة محترمة، أليس كذلك؟".

– أنا "مُكترَى" في مزرعة مانيه الطاعون.

– دع الكبرياء جانباً. أنا أيضاً بنت عائلة محترمة. أخواتي تزوّجن كلّهن. لديّ أخوان متخرّجان في الجامعة: الأوّل طبيب والثاني محامٍ. أبي...

كانت تنظر إلى قعر كوب البيرة ثم أفرغته دفعة واحدة.

– عسى الله أن يجنّب عائلتي معرفة أنّ ابنتها فتاة هوى. هذا سيتسبّب في موت والدتي.

– وكيف انجررت إلى هذا المصير؟

– كنت متزوّجة بجوّاب تجاريّ وقد هجرني في باهيا. بقيت فيها لبعض الوقت. وبعدها جلت في المناطق المجاورة. إلى أن وصلت إلى هنا.

– ألم تري زوجك مجدّداً؟

– لا، لحسن الحظ.

– هذه الحياة...

احتست كوب البيرة خاصتي. كانت ترتدي في عنقها صليباً من حجارة مزيّفة.

– هديّة الخطوبة.

– هذه الحياة...

– هل نرقص؟

– هيّا.

كان أونوريو يلتهم شفتي ماريت السمراوين بشفتيه السوداوين.

ذهبنا عند الفتيات تحت مطر ناعم. حين دخلت إلى غرفتها قالت لي أنطونيتا: "اسمع، يا صغيري، لا أستطيع الذهاب معك. أفضّل ألا أكسب مالي. سأنقل إليك المرض. لقد شفيت تقريباً ولكن...".

شارع الأوحال

في الصباح، أظهرت لي أنطونيتا رسالة من الغسّالة:

آنسة أنطونيتا،

لو سمحت أن تفعلي كلّ ما في وسعك لتؤمّني لي المال الذي أحتاجه. انتظرت شهراً، لا بأس، المهمّ أن ترسليه إلي. اعذريني لمطالبتي بأجرتي، لكن تعلمين أنّني فقيرة، وبحاجة إلى المال.

مادلينا

– وكم المبلغ؟

– ثلاثة آلاف ريس.

أعطيتها خمسة آلاف ريس التي تبقّت لي.

– شكراً يا صغيري. حين أشفى تماماً، ستكون عشيقي. أنت أوّل شخصٍ طيّب القلب أصادفه هنا في الجنوب.

غسلتُ وجهي ثمّ سرّحت أنطونيتا شعري المشعّث.

فضلاً عن الشارع الشهير الممتدّ على مسافة كيلومترين، كان هناك في بيرانجي زقاق يقع في طريق مسدود يسمّونه بحقّ "شارع الأوحال". بغضّ النظر عن وحوله، كانت النساء المتزوّجات يخشين شارع الفتيات العاهرات هذا.

كنّ يقلن: "على رجال الشرطة أن يمنعوا هذا الأمر".

– تخيّلي، رجال الشرطة هم أول من...

– هذا صحيح تماماً سيّدة روزاليا. سينفق أزواجنا كلّ ما يكسبونه على هؤلاء الفتيات، عفوك يا رب.

– وبدلاً من أن يعطيني مانوييل المال لأشتري قبّعة وثوباً... فهو لا يتكرّم عليّ إلا بالوعود. أظنّ أنّه يعطي المال لهؤلاء القذرات.

– إنهنّ ينهبن الناس.

– لكنّ الله الرحيم سيعاقبهن يا سيّدة روزاليا، الله سيعاقبهن.

كانت زيلدا خلاسيّة صغيرة فاتحة اللون ذات عينين بريئتين واسعتين لا تعرف شيئاً من الحياة. تعرّفتُ إليها وقت تناول القهوة. كانت تبيع جسدها منذ الحادية عشرة، وتمكث في هذا المنزل الصغير مع أنطونيتا

وماريت وزيفا. تغطّي جسدها بثوب رثّ مهلهل. كان نهدا الصبيّة المسكينة مسطّحين تقريباً. كانت تحتسي قهوتها ساهمة صامتة. أخذ جوان غريلو، الذي كان يضاجعها، يقبّلها، فتستسلم له منصاعة ببساطة تامّة. كان هذا يشكل جزءاً من مهنتها. وقياساً على سنواتها الثلاث عشرة التي لم تتمّها بعد، كانت فعلاً تجيد ممارسة المهنة.

– كم عمرك، يا صغيرة؟

– ثلاثة عشر عاماً.

– فقط؟

– سأتمّها بعد غد.

– من كان البادئ؟

– ابن الكولونيل ميسابيل.

– كم كان عمرك؟

– حوالي الحادية عشرة.

– هل كنت قد بلغت؟

– ليس بعد!

أخبرتني زيفا القصّة كاملة. كانت زيلدا الابنة الوحيدة للعجوز أسنسو، وكلَّ عائلته. كانا يعملان عند مانيه الطاعون، هو في القطاف وهي في تجميع أكوام الكاكاو. كانا يسكنان على حافة الطريق. كان أوزوريو، ابن الكولونيل، الذي يدرس في باهيا، يأتي كلّ سنة إلى العزبة إبّان الفرص. حيّاه العجوز أسنسو عند عتبة بابه وسأله عن أخبار دراسته.

– وكيف حال دروسك أيها السيّد الشاب؟ هل هي على ما يرام؟

أوقف الطالب حصانه لينظر إلى فخذي زيلدا المكتملتين المشدودتين رغم سنواتها العشر. وذات يوم، كان أسنسو في بيراجي وصادف مرور أوزوريو بالقرية، فبدأت تمطر. عندئذٍ سأل أوزوريو زيلدا التي كانت منشغلة بترتيب البيت أن تستضيفه. لكنّه لم يحترم سنوات زيلدا العشر. إنها مأساة الفقراء: الأب يرمي ابنته خارجاً ويموت كمداً.

– والبلهاء لا تزال تحبّ ذاك الحقير.

اعترفت زيلدا: "يعجبني، ماذا تريدني أن أفعل؟ إنه جميل جدّاً. وحين سيأتي هذه السنة، سيضاجعني".

كان انتحار زيلدا أحد الأمور التي أثارت انفعالي أكثر من أي شيء آخر خلال إقامتي في جنوب باهيا. عندما عرفَتْ أنّ المحامي العتيد جاء يمضي عيد مار يوحنا في العزبة، اشترت ثوباً جديداً وأحمر شفاه من مدّخراتها. ارتدت الثوب الجديد وتبرّجت بإتقان، ثم ذهبت تنتظره وسط الطريق لكنّه مرّ دون أن يعيرها اهتماماً. وعند مجيء الليل، جاء إلى القرية معرّجاً على شارع الأوحال. هتفت زيلدا: "أوزوريو!".

– من أنتِ؟

– زيلدا.

– أيّ زيلدا؟

– فضضتَ بكارتي في مزرعة أبيك.

– لكنّك مخيفة... يا للبشاعة، أف!

وذهب يضاجع أنطونيتا.

في اليوم التالي، تجرّعت زيلدا السمّ. جمعت الفتيات المال لدفنها لأنها كانت قد أنفقت كل مدّخراتها لشراء الثوب الجديد. ولدى مرور موكب

الجنازة ووسطه نعش بائس رديء الدهان، كان أوزوريو يعبر القرية على ظهر الحصان.

– من المتوفّى؟

– زيلدا.

– ماتت؟

– لا، بل انتحرت.

– لتسعدْ في الجحيم.

لم تكن السيّدة روزاليا تصدّق أنّ مومساً يمكنها أن تنتحر بسبب العشق. تنتحر المومس لتكفّر عن خطاياها، آمين.

لم أستطع قطّ أن أفهم سبب امتلاء مواخير شارع الأوحال بصور القدّيسين وتماثيلهم. كانت صورة "سنيور دو بونفيم"[23] تزيّن كل البيوت. وكانت أنطونيتا، قبل أن تضاجع رجلاً، تؤدّي صلاتها. تؤمن الفتيات بالسحر ويقمن بنذورات. يلعنّ الحياة التي يعشنها وفي الوقت نفسه يشكرن الخالق كلّ يوم على أنه خلقهنّ. كان الأخ بنتو يتحدّث

عنهنّ بالسوء في عظاته أيّام الأحد، لكنّه، كما شرحت لي زيفا، زبون لدى زوجة الدكتور ريناتو.

23 أي "ربنا يسوع المسيح مانح الحظ الحسن"، والصورة مأخوذة من كنيسة سنيور دو بونفيم أكثر الكنائس شعبيّة في باهيا.

يا للفتيات البائسات اللواتي كنّ يبكين ويثملن في شارع الأوحال! يا لبائعات الجسد المسكينات! تُرى، متى سيأتي يوم تحريركنّ؟

هؤلاء الفتيات كنوز من الحنان المهدورة! كم من أمّ صالحة بينهنّ! كم من عاملة مجتهدة! يا للمسكينات البائسات اللواتي تنكر الزوجات الصالحات عليهنّ الحقّ في ملكوت السماء. لكنّ الأثرياء لا يخجلون من الدعارة. بل يكتفون باحتقار التعيسات الحظ متناسين أنّهم من أوصلهنّ إلى هذا المصير.

أحلم باليوم الذي سينهض فيه شارع الأوحال من كبوته ويمزّق صور القديسين، ويعتني بمطابخ الأغنياء. في ذاك النهار، سيكون في مقدور الفتيات إنجاب الأولاد.

كاكاو

في جنوب باهيا "كاكاو" هي الكلمة الوحيدة التي لها وقع حسن. ما أجمل الحقول عندما تنحني أشجارها تحت ثقل الثمار الصفراء. في بداية كلّ سنة، ينظر الكولونيلات إلى الأفق مستشرفين الطقس والموسم. عندئذٍ تبدأ "التعهّدات" مع العمال. "التعهّد" هو نوع من العقد الخاص بجني حقل كاكاو، ويعقد عموماً مع العمّال الذين لديهم زوجة وأطفال. إذ يتعهّدون جني موسم مزرعة بكاملها وبإمكانهم أن يستأجروا عمّالاً لمساعدتهم. أمّا الآخرون، الذين يأتون بمفردهم، فيخضعون للتوظيف الخاص، ويضطلعون يوميّاً بجميع المهمات: جني الثمار وتكديسها، المصافي وصنع الفروش للتجفيف. هؤلاء كانوا الأكثريّة. كنّا نقبض ثلاثة آلاف وخمسمئة ريس لقاء يوم العمل، ولكن في المواسم الجيّدة، كان يُدفع لنا خمسمئة ألف ريس.

كنّا نذهب صباحاً حاملين المخابط الطويلة المنتهية في طرفها بمنجل صغير يلتمع تحت نور الشمس. نتغلغل داخل أشجار الكاكاو لقطافها.

وفي حقل جوان إيفانجيليستا القديم، أحد أفضل حقول العزبة، يعمل فريق مُجدّ. كنّا، أنا وأونوريو ونيلو وفالنتان وستة عمّال آخرين، نقوم على القطاف. وكانت ماغنوليا، وجوليا العجوز، وسيميون، وريتا، وجوان غريلو، وآخرون، يكوّمون الثمار ويفتحون قواقعها. تعلو أكوام من هذه القرون البيضاء التي يسيل منها النسغ. ونحن المسؤولون عن القطاف، كنّا نبتعد أحدنا عن الآخر ولا نتبادل إلا بضع كلمات. أمّا المهتمّون بتجميع الأكوام، فكانوا يتحدّثون ويضحكون. كانت فرقة نقل الكاكاو الطري تصل وتجتاح الحقل. ثم يؤخذ الكاكاو إلى المصافي ويخمّر لثلاثة أيام. كان يجدر بنا الرقص على القرون الدبقة وزبدة الكاكاو تلتصق بأقدامنا، هذه الزبدة التي لا تزيلها لا الحمّامات ولا الصابون الطري. ثم، بعد أن ينفصل الكاكو عن الزبدة، يُجفّف في الشمس بنشره على فروش خشبية. هناك أيضاً كنّا نرقص فوقه ونغنّي باسطين أقدامنا ومباعدين بين أصابعنا. وفي غضون ثمانية أيّام، تصبح قرون الكاكاو سوداء وتفوح منها رائحة الشوكولا. حينئذٍ كان أنطونيو باريغينيا يحمّل أكياساً وأكياساً إلى بيرانجي على ظهور قوافل من أربعين وخمسين حماراً.

كان أكثر المستأجَرين والمقاولين لا يعرفون عن الشوكولا إلا هذه الرائحة الملاصقة للكاكاو. وعندما يحين وقت الظهيرة (كنا نحدّد الوقت عن طريق الشمس)، نتوقّف عن العمل ونلتحق بفريق التجميع. هناك نتناول قطعة اللحم المقدّد والفاصولياء السوداء المطهوّة منذ الصباح، وتتناقل الأيدي زجاجة التافية.

كنا نتلذّذ بجرعات الشراب ونستغرق في الأحاديث دون أن نعير انتباهاً للأفاعي التي تمرّ محدثة جلبات غريبة بين الأوراق اليابسة التي تفترش الأرض تماماً. كان فالنتان يعرف قصصاً جميلة ويرويها لنا. تجاوز السبعين ولا يزال يعمل بنشاط نادر لا تظهره إلا قلّة بيننا، لكنّ لا أحد يضاهيه في الشرب. كان يفسّر الإنجيل على طريقته وبصورة مختلفة كليّاً عن الكاثوليكيّين والبروتستانت. ذات يوم أخبرنا قصة قابيل وهابيل.

– ألا تعرفونها؟ مع ذلك هي في الكتاب المقدّس...

– أخبرْها لنا أيها العجوز.

– أعطى الله قابيل وهابيل حقل كاكاو ليتقاسماه. وقابيل الذي كان رجلاً شرّيراً قسّم الملكية إلى ثلاثة أقسام، وقال لهابيل: أوّل حصّة لي

وتلك التي في الوسط لي ولك، والثالثة لي أيضاً. فقال له هابيل: لا تفعل ذلك يا أخي الصغير، فهذا يدمي قلبي. فمازحه قابيل: "ماذا قلت! هذا يدمي قلبك؟ حسناً خذ هذا"، وسحب مسدّسه وقتل هابيل بطلقة واحدة: "بوم". كانت مثل هذه الأمور تحدث في سالف الأزمنة.

– لا بدّ أن قابيل هو جدّ مانيه الطاعون.

– لا جدال في ذلك. وجدّة مانيه الطاعون كانت مومساً في بونتال.

– أكنت تعرف يا أونوريو؟

– بالطبع. وأمّه توفّيت من الجوع عندما فقدت القدرة على المضاجعة. حتى إنّ الابن لم يكن هناك يوم...

– الحقير...

– لكنه كان يخجل بأمّه.

– أمّه بالذات...

كانت تحليتنا الوحيدة والثابتة مؤلفة من الجاكية والموز، ولم نكن نعرف تحلية أخرى. عند انتهاء الغداء كان جوان غريلو يتسلّق شجرة الجاكية لقطف الثمار الناضجة فنلتهمها بأيدينا وأصابعنا ممتلئة دبقاً.

النساء يفضّلن الثمار الفجّة، ونحن الرجال نغرز أصابعنا في الطريّة. كان جوان غريلو، رغم نحوله، مفرطاً في الطعام وقد حطّم الرقم القياسي بأن أكل ذات يوم مئة واثنتي حبّة جاكية. سرى هذا الخبر بين المزارع كأنّه خرافة. لكنّ جوان غريلو كان يشعر بالذنب ولا يريد تجديد مأثرته.

يمرّ ألجميرو راكباً ظهر كاربوناتو، حماره المفضل، ليراقب العمال، مسجّلاً اعتراضه حين يسير العمل ببطء شديد.

– أنتم بطيئون... كالحلازين.

فيجيبه أونوريو مشاكساً: "هل نسيت أنّ العمل شاقّ؟ حين كنت تكدح مثلنا هل كانت وتيرة العمل تسير أسرع؟"

كان ألجميرو يمقت أن يذكّره أحدهم بتلك الحقبة، فيبدأ سَوط حماره.

– لا أريد مجادلتك. كلّ ما أطلبه العمل بجدّ...

ويستمرّ القطّاف. وتسقط الثمار بصوت مخنوق: "بان بان".

يبدأ أونوريو أغاني الماكومبا[24]:

24 أغنيات أفريقية-برازيلية.

أنا هنديّ

أرتدي الريش،
أتيت إلى هذه الأرض
لأشرب الجوريما[25] .

25 شراب سحري.

كان صوته يهيم في حقول الكاكاو فيما يرافق الإيقاع الرتيب لتساقط الثمار الأغنية مثل مطنطنة[26] زنوج يضربون على طبولهم.

26 حفلة رقص وغناء على ألحان الطنطن وهي طبلة صغيرة تستعمل في أفريقيا.

بام بام بام
لأشرب الجوريما
لأشرب الجوريما.

الظل كثيف. والريح حين كانت تهزّ الأشجار ترشق أكتافنا العارية بقطرات ماء، فنرتعش. ابتدع جوان غريلو ذات يوم سجعاً، وكان إحدى مفخراته كخلاسيّ متباهٍ: "واجه القطرة بالسكرة".

وكان يرفع الزجاجة على فمه.

أمّا أونوريو، فيقطف الثمار باحثاً عن ضالّته:

أريد سمراء
أريدها جميلة،

جميلة والشريط في شعرها.

لكنّ السمراء لم تكن تظهر.

أريد أرملة
وأريدها ثريّة،
ثريّة وعلى شفا الموت.

لكنْ لا السمراء ولا الأرملة كانتا تظهران. تضحك ماغنوليا للأغاني. عيناها سارحتان في البعيد، ويداها تعملان رغم كلّ شيء، فاتحة قواقع الكاكاو بطرف سكينها. تفكّر في كولودينو، كما كنّا نتخيّل. وفي حياتنا الخالية من الحبّ (إذ هل يمكن للحبّ أن يوجد في حقول الكاكاو؟ كانت لدينا أيضاً لحظاتنا من الحنين. أو الحبّ للأثرياء فقط؟)

كان أونوريو يجاهر بما كنّا نقوله في سرّنا: "حياة قحبة".

كانت فروش التجفيف الطويلة والعريضة تشبه جماعة حيوانات ذات أشداق فارهة هاجعة في الشمس. تبسط قرون الكاكاو عليها لتجفّ، ونحن، مرّتين في النهار، نرقص فوقها رقصة تتحرّك فيها الأقدام فقط فيما تحرق الشمس أكتافنا العارية. في آخر الحقل المصفاة التي ينداح من

فتحاتها سائل دبق، وتشبه بمستطيلها القذر مصيدة فئران. وكان الأتون مهيمناً على المشهد كلّه بفرنه الكبير حيث يجفّف الكاكاو في أيّام المطر. حين تمطر نسارع لوضع أغطية الصفيح على الفروش. وفي يونيو ويوليو، كان كلّ الكاكاو تقريباً يذهب إلى الفرن لأن الأيّام المشمسة تصبح نادرة.

كان الأتون يلفحنا بوهجه وكنّا نعمل في حرارة جهنمية. وجهنم نفسها، كما يصفها الآباء الألمان في ساو كريستوفاو، لا يسعها أن تكون أسوأ. يتصبّب العرق منّا كأنّنا هالكون، ثم حين نخرج من هناك وسراويلنا المستعملة مبللّة، كنّا نسارع لنرمي أنفسنا في النهر.

مع ذلك، ذات مرّة، توفّي جوان آمارو بعد عمله في الفرن. سهرنا حول الجثة طوال الليل. وبدأنا نخشى فرن التجفيف كأنّه عدوّ غاشم. ترك جوان آمارو وراءه زوجة وثلاثة أطفال. بدأت الأرملة العجوز واثنتان من بناته يعملن في البغاء. وذهبت الثالثة لتسكن مع سيميون دون نيل بركة القاضي أو الكاهن.

ذات مساء كنّا نثرثر أمام المخزن، ونحن نشحذ سكاكينا.

ترجّل ألجميرو عن ظهر حماره.

– ديوكليسيو!

سأل صانع الفُروش: "ماذا هناك؟"

– وصلتني رسالة من الكولونيل.

– ...

– في شحنة البضاعة الأخيرة، كان هناك ثلاثون أروباً من النوعية "المقبولة".

– مقبولة؟ لم يكن هناك إلا النوعية "الممتازة" على الفروش التي في عهدتي.

– إذاً هي تابعة لفروش زي لويس.

– من الممكن.

– قال لي الكولونيل أن أطرد صانع الفروش.

– إنه يوم تعبئة الأكياس. زي لويس سيأتي إلى هنا.

كان زي لويس يعمل في حقول الكاكاو الأكثر نأياً في العزبة. كان مسؤولاً عن الفروش وقد ارتكب خطأ لا يغتفر في نظر الكولونيل: ترك

ثلاثين أروباً من الكاكاو تتعفّن. كان أروب الكاكاو "المقبول" يباع أقل بألفي ريس. كان زي لويس يشرب كثيراً وكان مصاباً بداء الملاريا المزمنة. لكن لا التافية ولا المرض كانا يمنعانه من العمل فكلاهما يشكّل جزءاً من حياته.

لدى قدومه نظرنا إليه كلّنا بنوع من الحزن.

أنذره ألجميرو: "زي لويس أنت مطرود".

– لماذا؟

– بسبب ثلاثين أروباً من الكاكاو "الجيّد".

– هل هذه غلطتي إذا السماء أمطرت. كان الكولونيل يريد الكاكاو على وجه السرعة...

– هذه هي الأوامر. جوان فرميليو!

فاستجاب أمين الصندوق: "ماذا هناك؟".

– هل راجعت حساب زي لويس؟

– حصل!

– هل تبقّى له مبلغ ما؟

– ثمانية عشر ألف ريس.

بدا زي لويس راضياً بما قسّم له.

– لا بأس، أعطني المبلغ، وسأذهب للبحث عن العمل في مكان آخر.

– لا، يا سيّد، اعترض ألجميرو، عليك أن تعوّض الكولونيل خسارته: ألفا ريس لكلّ أروب. وهناك ثلاثون أروباً، أي عليك أن تدفع مبلغاً قدره... كم يساوي هذا يا جوان فرميليو؟

– ستون ألف ريس.

– إذاً ستعمل في المزرعة حتى تسدّد الدين المتوجّب عليك.

– خذه من طيزي.

– هذه هي الأوامر

– وبماذا آكل؟

– تستطيع أن تزدرد الموز.

– لست عبداً.

– تدبّر أمرك.

– سأرحل من هنا وأريد مالي.

– لن نعطيك فلساً.

في الليل، هرب زي لويس دون ماله. انطلق ألجميرو وجوان فرميليو في أثره على ظهر مطيّتين رشيقتين. أخذا سكينه وبقجة ثيابه وشاع الخبر في العزبة أنّهما أوسعاه ضرباً. وشاع الخبر أيضاً أنّ زي لويس هو من أطلق النار على ألجميرو في ليلة ليلاء، على طريق بيرانجي.

كانت الأم مرغريدا تبيع عصير قصب السكّر والتافية المخضوضرة (كان هناك صليب داخل الزجاجة) وسط الطريق في تخشيبة من القش. كان أولادها الخمسة يركضون في الريف عراة ووجوههم مليئة بخدوش سبّبتها الأشواك. لا أعرف لماذا كان الكولونيل يسمح للأم مرغريدا أن تقوم بهذه التجارة الصغيرة داخل العزبة. مرغريدا أنهكتها الأحزان وكانت تبدو في الخمسين لكنّني أعتقد أنها لم تكد تتجاوز الثلاثين. لو أنّ كاتباً أتى إلى مزارع الكاكاو وعرف قصّتها، لوصفها بالمأساة المرعبة.

كان أوسفالدو، زوج سينيا مرغاريدا، يقضي عقوبته في السجن بعد أن حُكم عليه بثمانية عشر عاماً. ما حدث له أمر معهود في جنوب البلاد. أتى من سيارا مع عائلته منذ زمن بعيد، ووجد نفسه "مؤاكراً" في مزرعة

الكولونيل أنريك سيلفا في بالستينا. إنه مثير للاهتمام عقد العمل ذاك الذي يسمى "المحاقلة"[27]. تكلّف العزبة ربّ العائلة استصلاح زاوية من الغابة وإقامة مزرعة فيها. يبقى "المؤاكر" سّيد الأرض سنتين أو ثلاثاً من العقد، يزرع المانيهوت والخضراوات التي يعتاش منها. وفي نهاية العقد، يدفع ربّ العمل زهاء خمسمئة إلى ثمانمئة ريس ثمن غرسة الكاكاو.

27 اكتراء أرض من صاحبها بقدر معيّن من غلّتها.

في نهاية المُزارعة، أراد أوسفالدو الذهاب لقبض ماله، فلم يدفع له الكولونيل. عندئذٍ ذهب أوسفالدو إلى إيليوس ثلاث أو أربع مرات ليشتكي لدى السلطات. وفي النهاية قال له المحقّق: "تلك القصص تشبه شجارات نساء عجائز. اسعَ لحلّ هذه المشكلة على طريقة الرجال".

عاد أوسفالدو إلى المزرعة، وفي المساء، قتل الكولونيل بطعنات سكين. ألقى النائب العام خطبة رائعة، مستشهداً بـ الكتاب المقدس وملقياً الأشعار. لم يقم محامي الدفاع (الذي لم يُدفع له أجره) بأيّ جهد. وحكمت هيئة المحلفين، المؤلّفة من المالكين، على المتّهم بالسجن ثماني

عشرة سنة ليكون عبرة لغيره. جاءت زوجته وأطفاله لزيارته في السجن. بكى للمرّة الأولى في حياته، ولعن الكاكاو.

أخذت سينيا مرغريدا تهيم على غير هدى. انتهى بها الأمر في "عزبة الأخوّة" تبيع عصير قصب السكر. أخذ أولادها يساعدون العمّال في تجميع ثمار الكاكاو وكانوا يكسبون خمسمئة ريس في النهار. ورغم كرهها الكاكاو، خشيت العودة إلى سيارا التي يضربها الجفاف. هنا على الأقلّ كان لديهم ما يقتاتون به فثمار الجاكية وفيرة.

كانت عزبة الكولونيل ميساييل الأكبر في الدولة، إذ تحتلّ مسافة هائلة. وكان كوخنا وثلاثون كوخاً آخر وسط العزبة. ولكنّ بعضها يبعد عنها مسافة فرسخ أو فرسخ ونصف. في يوم التزوّد بالمؤونة، السبت، يجتمع العمال أمام المخزن منتظرين أن يباشر جوان فرميليو تقديم خدماته. في باحة بيت السيّد دجاجات وفراريج تنقد الحبّ، وخنازير سمينة قذرة تمرّ، والنسر المدجّن "غارسيا" ينقر أقدامنا بمودّة. رحنا نثرثر بخصوص الموسم والعمل، ونخطط للسهرة في القرية. أتى جوان فرميليو على مهل ملقياً التحيّة قائلاً: "مساء الخير".

– مساء الخير.

أجاب فالنتان: "ربنا يسوع المسيح ينعم عليك بالمساء".

دخلنا متعبين إلى المخزن متأبّطين الكيس لنشتري مؤونة الأسبوع.

"نيلو"، نادى جوان فرميليو.

– كيلو لحم، وليبرتان[28] من الفاصوليا، ونصف ليبرة من الصابون، ونصف ليبرة من السكر، ولتر من التافية، ونصف لتر من البترول.

28 الليبرة خمسمئة غرام.

هكذا كنّا نتعاقب الواحد تلو الآخر على شراء ما نحتاجه وبعدئذٍ نخرج لنتسامر. كان جوان فرميليو، خلف طاولة المبيع، يزين البضائع المطلوبة. وأحياناً يعترض قائلاً: "ولماذا تريد كيلويْن من اللحم المقّدد؟ بعدها ستشعر بالاستياء لأنه لم يعد لديك مال. تأكل كثيراً...".

وينبّه آخر: "عليك دين. خذ حاجتك ولكن لا تزد".

يأكل الفتى أقلّ على مدى الأسبوع. كان جوان فرميليو يدوّن في دفتر كبير للحسابات مشتريات العمال. وحدهما، هو وربّ العمل، يعرفان

الأسعار. كنّا مجبرين على الشراء من مخزن المونة في العزبة. إذاً ليس مستغرباً ألا يتبقّى لنا مال على الإطلاق.

في الخارج كانوا يتحدّثون عن الموسم.

– كان الموسم وفيراً هذه السنة.

– وحدها ماتاسيكا أنتجت عشرة آلاف أروب.

"جوان إيفانجيليستا أنتج ثلاثة آلاف أروب"، أوضح أونوريو.

– هل تعرفون أنّ الكولونيل هنا في المنطقة؟

– جاء للاحتفال بعيد مار يوحنا، أليس كذلك؟

– نعم، برفقة العائلة.

– من سيكون دوره هذه السنة في العمل المريح؟

درج الكولونيل على أن يضع عاملاً تحت تصرّف عائلته لإحضار الفواكه والماء والحطب ومرافقة ابنته في نزهاتها داخل العزبة.

– عمل مريح!

– لكنّني لا أريد هذا العمل. السيدة أرليندا لا تطاق.

– لكنّ الفتاة جميلة جداً.

– وما النفع! فهي لا تكترث لأمرنا.

اختير أونوريو السنة الفائتة لمعاونة العائلة. عقّب قائلاً: "حتى إنّها لا تنتبه إلى الشخص الذي يرافقها. ما من أحد يضاهيها تكبّراً. لا بل إنّها لا تراه فيشعر أنّه أهبل".

كنّا نخطّط للنزول في بيرانجي. ثم ذهبنا لنستحمّ في النهر. عند ظهور أول النجوم في السماء يغادرنا هؤلاء الذين يسكنون بعيداً حاملين الفوانيس المضاءة، مرهفي السمع متوجّسين من الأفعى التي تطفئ النار. قال أونوريو وكان يرتدي ثياب الآحاد: "سأقوم بدور الوكيل التجاري".

كان الليل يكتنف كلّ شيء. نحيب القيثارات، زقزقة العصافير، ثمَار أشجار الكاكاو الصفراء، فحيح الأفاعي، النجوم اللامعة في السماء، المشاعل على الطريق التي تبدو كأنّها أرواح تائهة تجول في البلاد... أجل، الليل في المزارع حزين، مظلم وأليم. وفي الليل العميق، تستيقظ أفكار الناس...

الجاكية

جاكية! جاكية! يتسلّق الصبية الأشجار كالقرود. ما إن تسقط الثمرة محدثة صدى، حتى يرتموا عليها. وبلحظة واحدة، لا يتبقّى منها إلا القشرة والفضلات قتتلقّفها الخنازير بِنَهم.

أقدامهم المنفرجة تبدو كأنّها أقدام بالغين، وبطونهم هائلة منتفخة جرّاء أكل الجاكية والتراب. وجوههم شاحبة ذات صفرة باهتة دليلٌ على توارثهم الأمراض المرعبة. أطفال بائسون ممتقعو البشرة يركضون في أسمالهم وسط ذهب أشجار الكاكاو. نظراتهم كامدة وعليهم شبهة من خبل. معظمهم يعملون في تجميع أكوام الكاكاو منذ سن الخامسة، ويبقون هكذا، صغاراً وكُسْحاً حتى العاشرة أو الثانية عشرة. ثمّ فجأة يصبحون رجالاً بدناً قصار القامة برونزيّي البشرة، ويقلعون عن أكل التراب لكنهم يستمّرون في أكل ثمار الجاكية.

"المدرسة" كلمة لا تعني لهم شيئاً. فبمَ إمكانها أن تفيد؟ إنّها عديمة النفع. فهناك لا يعلّمون العمل في المزارع ولا فروش التجفيف. كان

بعضهم يتعلّمون القراءة عند البلوغ، ويعدّون على أصابعهم. أمّا مدرسة الفسق، فهي تعني لهم. وهذا ما كانته الحقول برفقة النعاج والبقر ولا سيّما أنّ الرغبات الجنسيّة تظهر في وقت باكر. كان لدى هؤلاء الأطفال الصغار البدُن ثلاثة أشياء متضخّمة: الأقدام والبطن والعضو الذكريّ.

كانوا يعرفون النكاح منذ ولادتهم فأهاليهم يمارسون الحب على مرأى منهم والعديد منهم رأوا أمهاتهم يتزوّجن مراراً.

منذ نعومة أظفارهم يدخّنون سجائر ثخينة من التبغ المفروم ويشربون جرعات كبيرة من التافية. ويتعلّمون الخوف من الكولونيل ورئيس العمال ويتمثّلون هذه المشاعر المتناقضة من الحقد والحب التي يكنّها أهاليهم للكاكاو. يتمرّغون في الوحل مع الخنازير ويتمنّون الحظّ السعيد للجميع. وفكرتهم عن الله غامضة، يرونه شبيهاً بالكولونيل يكافئ الأغنياء ويعاقب الفقراء. ويكبرون ورأسهم مليء بالشعوذات وفي نفوسهم مَعِينُ آلام. لا دين يلتزمونه؛ يرون في الكاهن عدّواً ويكرهونه تلقائيّاً كما يكرهون الأفاعي السامّة وأولاد المالكين.

لدى بلوغهم الثانية عشرة يصطحبهم العمّال إلى بيرانجي عند العاهرات. ومع المرض يصبحون رجالاً. وبدلاً من خمسمئة ريس، يكسبون ثلاثة آلاف وخمسمئة.

أولاد أسماؤهم بسيطة: جان، جوزيف، ماري، بيار، ماري دو لورد، بول. لم يعرفوا ألعاباً ولا دمى. وآخرون يحملون أسماء غريبة لأبطال في الروايات الأرستقراطية: لوي شارل، تيت ليف، سيزار، أوغست، جورج، آلدا، جيلكا. لاحظت في ما بعد أنّ كل هؤلاء كانوا أبناء بالمعموديّة لماريا ابنة الكولونيل.

كانت مراسيم العماد تجري كلّ سنة في عيد الميلاد. يدعو الكولونيل وعائلته كاهناً للاحتفال بالقداس في العزبة. وكانت عائلات من إيليوس وإيتابونا وبيرانجي تقصد منزل السيّد. ثم تذبح الخنازير والدجاج والديكة الرومية والخراف. مساء تبدأ الجماهير الرقص على موسيقا الفونوغراف. ثمانية أيام من الاحتفالات يشارك فيها أبناء المدينة هؤلاء الذين كانوا يتجنّبون لمسنا لئلا يتلوّثوا ويأمروننا بالتحدّث إليهم عن بعد ليتسلّوا بالحماقات التي كنّا نتفوّه بها.

ومع قدوم عيد الميلاد، يأتي الاحتفال الكبير. كان العمّال من أبعد المناطق وعائلات الأكّارين بأكملها يتقاطرون مشياً على الأقدام لتعميد أطفالهم. يحمل الرجال أحذيتهم على أكتافهم ويثنون أسفل سراويلهم المستعملة، ويذهبون إلى منزل السيّد ليلقوا التحيّة على الكولونيل وعائلته. كان ضيوفهم يطلقون ضحكات هازئة لدى رؤيتهم نساء المزارع يدخلن مربكات وأعينهنّ مخفضة، وكان الصبية الكُسْح ذوو البطون المنتفخة يطلبون إكراميّة من الجميع ويقبّلون الأيدي.

– قبّل يد الدكتور أوزوريو، أيها الصبي الفظّ. قف جيّداً...

ومن ثمّ نعود لنقف أمام بيت المونة. نحتسي العرق والقيثارات فيما تغنّي الأكورديونات الفرح والحزن، وقصص حبّ ساذجة فيها خلاسّيات يرتدين أثواباً فضفاضة ويزيّنّ شعورهنّ بشريط وبأزهار الحقول البرية.

كان الجميع يحتسون الكحول رجالاً ونساءً وأطفالاً. ولكنّ العيد لم يكن يبهجنا. ما كان يبهجنا هو يوم الراحة مع الأجرة المدفوعة.

أقيم المذبح على المصطبة محتجباً خلف الأزهار التي نسّقتها الأيادي المرّفهة لماريا وصديقاتها. لم تعد صور القديسين تُرى لكثرة الورود. في

العاشرة، جلس أفراد عائلة الكولونيل وضيوفهم الآتون من المدينة في الرواق المسقوف لحظة وصولنا إلى المصطبة. ثم استهلّ الكاهن رتبة القدّاس. كان الأغنياء يركعون فيما الفتيات يصلّين حاملات المسابح أو كتب الصلوات ذات الأقفال الذهبيّة. أمّا الفقراء، فيبقون واقفين وبعضهم يقول مازحاً: "لا أركع كي لا أوّسخ بنطالي المستعمل، اشتريته البارحة".

كانت نساء العمّال تتلو أيضاً صلوات غريبة نصف كاثوليكيّة، نصف مشعوذة:

> يا قديسة بربارة نجّينا من الرعد والطاعون ولسعات الأفاعي. خلّصينا من الأرواح الشريرة والمستذئبين والبغلات اللواتي لا رأس لهنّ. اجعلي زوجي يكسب بعض المال فنتمكّن من الذهاب إلى بياوي[29]، أو على الأقلّ إلى باهيا لنرى القديس جوبيابا[30] ابن أوريشا ربّنا. أعطي الصحّة والقوّة لزوجي وإلا لمتنا جوعاً يا قدّيسة بربارة. نجّي أخي خوليو من تلك القذرة سينيا التي تسلب كلّ ماله. واحمي بيتنا من روح الهندي كوريسكو الشرّيرة التي تتسبّب لنا دوماً في المتاعب. آمين.

29 واحدة من الولايات السبع والعشرين الفيدرالية في البرازيل. تحدّها ولاية باهيا من الجنوب.

وكنّ يرسمن إشارة الصليب كيفما اتفق. أمّا نساء الأغنياء، فيؤدّين شعائر العبادة مرتديات الأثواب الكاشفة أكتافهن وبشراتهنّ الناصعة البياض التي تذكّر، يا إلهي! بفواكه أوروبا. كنّا نختلس النظر، وأعيننا مخفضة، إلى النهود والأفخاذ. ونعلّق قائلين: "لو أنّ هذه الجميلة في سريري".

– أنا لن يكون بإمكاني فعل شيء...

– دعك من الشؤم.

– هذه "شلخة"!

– انظر، يا للنهديْن الجميليْن!

هكذا تعرض لنا السيّدات الجميلات البيضاوات بياض لوزة كاكاو خارجة للتو من قشرتها، المصلّيات بخشوع وورع، مفاتنهنّ النادرة فتمتلئ لياليا المستوحشة بأحلام مزعجة.

يرفع الكاهن القربان فيركع الجميع، ما عدا كولودينو الذي لم يكن مؤمناً. نحن أيضاً كنّا نركع دون تفكير، وما همّ؟

تنهض الصبايا من جديد فترتفع الأثواب ونسترق النظر إلى سيقانهنّ بأعينٍ منبهرة لم تكن معتادةً البشرات الجميلة. لكنّهنّ لا يبتسمن إلا للطلاب الشبّان الذين يرافقون ابن الكولونيل فنشعر بالحقد عليهم، وأيضاً بحسدٍ دفين مرعب.

ويحين العماد. يتلقّى موكب من ثلاثين طفلاً إلى أربعين رتبة العماد معاً، كقطيع من العجول يجب وسمها. تحمل ماريا الشموع وتطلق أسماء مستعصية على أبنائها بالتبنّي. يبدأ الأصغر سناً بينهم البكاء، ولم يكن الأكبر سنّاً يفهمون شيئاً ممّا يجري. لكنّ الأطفال كانوا في ما بعد يسموّن الكولونيل العرّاب وماريا العرّابة.

كان الكاهن المتدثّر بالذهب والحرير، الذي يثير في نفوسنا أيضاً الحسد، يقوم بوعظة مطوّلة مؤكّداً فيها وجوب إطاعتنا أرباب عملنا وكهنتنا، وتجنّبنا الإصغاء إلى تلك النظريّات التي تدعو إلى المساواة (كنّا نتحرّق شوقاً لمعرفتها)، مهدّداً بالجحيم الأشرار، أي من ستسوّل لهم أنفسهم التمرّد، ومانحاً السماء للقانعين.

ثم يأتي الرجال والنساء الذين يتساكنون منذ زمن طويل إلى الكاهن ليباركهم، ولكنّهم يدركون لاحقاً أنّ الربّ لم يطيّب أيّامهم بالزواج الكنسي، وأنّ البؤس اليومي لا يزال على حاله.

بعد أن تنتهي المراسم، يبتسم الكاهن للكولونيل الذي يبتسم بدوره للحضور، ويقترب الناس من المأدبة المزيّنة بالأزهار والخمور والدواجن، ويأمر الكولونيل بتوزيع التافية على الجمهور. لكنّنا كنّا نتناول اللحم المقدّد نفسه والفاصوليا نفسها أيضاً.

كان المعمّدون الجدد يتسلّقون الأشجار بأثوابهم الجديدة، فتسقط ثمار الجاكية الناضجة. ثم ينصرفون إلى اللعب لا بكُرة القدم أو قيادة الدراجات، بل باصطياد العصافير بالمقلاع، وأكل التراب عند ضفّة الجدول خفية عن أمهاتهم.

لم يكن الصبية نفسهم ليلمسوا ثمار الكاكاو كأنّهم يخشون هذه القواقع الصفراء ذات اللوزات السكّريّة التي كانت تربطهم بحياةٍ قوامُها اللحم المقدّد والجاكية. الكاكاو سلطان يخشاه الكولونيل نفسه.

توفّيت ريموندا ذات يوم مشرق في عزبة الكولونيل أوريليو. كانت ابنتها آميليا تهتمّ بها كأنّها فتاة ناضجة، فيما كانت لا تزال في الرابعة عشرة. طلبت ريموندا من الكولونيل، وهي على فراش الموت، أن يسهر على ابنتها فاصطحبها إلى منزله في إيليوس. كانت ظهر الحصان الذي يمتطيه أولاد السيّد لعباً، وكانت تكنّس البيت، وتذهب للإتيان بالماء من النبع. تأكل الفضلات وتُعنّف عند كلّ مناسبة. ذات يوم انتفضت وهاجمت هؤلاء الذي يستخدمونها حصاناً لألعابهم فعضّتهم وشتمتهم ثم بكت بحرارة. وفي ذاك اليوم، ضُربت ضرباً مبرحاً حتى بلغ صراخها الشارع.

هرعت إحدى الجارات لترى ما الأمر فشرحت لها دونا كلارا: "اعلمي أنّنا طيّبون أكثر من اللزوم، نساعد هؤلاء الصغيرات البائسات لكنّهن سيئات الخلق إلى أبعد حدود، ولا يفعلن شيئاً. تصوّري: هذه الصغيرة النكرة عضّت جايم وضربت جانو ثم راحت تكيل الشتائم بلا توقّف. وحده الضرب المبرح يفيد في مثل حالتها".

لم يكن يعلمن كم كنّا نكره هذا النوع من الإحسان.

ماذا عن المدرسة! ذهبت آميليا إلى المدرسة حين اصطحبها شاب أو شاعر أو شيء من هذا القبيل سرّاً إليها. واليوم تكتب آميليا لنا رسائل أو تخبرنا أشياء جديرة بالاهتمام. تقول إنّها يوماً ما حين ستكبر ستأتي لتعلّمنا ما هو ضروريّ. وإذ ذاك، حين يعلم الصبية هذه الأمور، لن يعودوا إلى أكل الجاكية. سينهضون ممتشقين سكاكينهم و... لم نكن نفهم كثيراً ما تقصده آميليا بقولها، لكننا كنا نصدّق أنّه يوماً ما س...

لم يكن الصبية يفكّرون بل يعملون ويأكلون وينامون. ذات مرّة قال أحد المثقفين: "انظر إليهم! إنّهم سعيدون لأنهم لا يفكّرون".

ذاك كان اعتقاده.

ملك الكاكاو وعائلته

أتى الكولونيل وعائلته لحضور الاحتفالات بعيد القدّيس يوحنا. أعاد كولودينو إصلاح المصطبة مستبدلاً الألواح القديمة التي نهشها النمل الأبيض بأخرى جديدة، وأعاد طلي الواجهة والباب الخلفيّ من جديد. ونَمَت نبتات الذرة منتظرة الأعياد، وأيضاً أطباق الكانجيكا والمونغوزا والباموني[31].

31 أطباق تقليديّة أساسها الذرة تطهى بمناسبة عيد مار يوحنا.

كان ألجميرو وجوان فرميليو منهمكيْن في تجهيز كلّ شيء استعداداً لمجيء الكولونيل وعائلته.

وصل مانوييل ميسابيل دو سوزا تيليس، ملك الكاكاو، الزعيم الإقطاعي لـ"عزبة الأخوّة" الهائلة تلك، مع كلّ أفراد عائلته ذات صباح مشرق من يونيو. خمسة بغال تحمل الأمتعة، والسيّدة أرليندا تحشر كيلواتها المئة في ثوبِ فارسةٍ ضيّق والبهيمة البائسة ترزح تحت ثقل جسدها. أمّا ماريا، فكانت تمتطي الجواد كالرجال. عيناها فاتحتان،

شعرها شديد الشقرة ومتموّج يتطاير في الريح الخفيفة التي تُثني سيقان الذرة وتُسقط أوراق الكاكاو. سأل الكولونيل ألجميرو عن الغلال، وجوان فرميليو عن العمّال.

– الحقل خلف المرعى كان إنتاجه أفضل العام الماضي.

– لم تشذّب الأشجار... لكنّ الغلال في حقل جوان إيفانجيليستا جاءت أفضل هذا العام.

– سيصل محصولنا إلى ثمانين ألف أروب أليس كذلك؟

– نعم، كولونيل، على ما أظنّ.

– يحب أن ننجح في الوصول إلى ذلك. الكاكاو ينخفض إنتاجه. وهؤلاء الأوغاد – أشار إلينا بإصبعه – لا يفكّرون إلا في الطعام. مجرّد كسالى!

– يجب زجرهم دوماً.

كان صوت الكولونيل رتيباً محمّلاً بتعب سِنِيّ حياته ومكره، وكانت عيناه شريرتين وغائرتين في وجه جعّده الزمن. كانت كرشه، مثل كرش عمي، عامرة مستديرة، رمز رخائه وازدهاره. كنّا نعرف أنّه يأكل كثيراً وبجنون، وأنّه لخمسين سنة خلت كان بغّالاً ثم صاحب دكان صغير. ربما

كُرهه لنا وارتيابه منّا نابع من أنّه كان أجيراً في ما مضى. وكانت السيّدة أرليندا المتباهية بثراء زوجها ترتدي مجوهرات ثمينة وفساتين حريريّة حتى وهي تتنزّه في الحقول.

كنّا كثراً جالسين أمام بيت المونة لدى وصول العائلة.

– صباح الخير

– صباح الخير.

قال فالنتان ببطء: "ليمنحك ربّنا يسوع نعمة هذا الصباح، يا سيّد".

ثم قال لنا بصوت خفيض: "ليأخذك الشيطان، يا سافل".

من تخوم العزبة، من الأراضي الأكثر نأياً، كانت عائلات العمّال تأتي بأكملها لزيارة السيّدة أرليندا. كانوا يأتون بالسلال المليئة بالبامية والفلفل والبندورة واللوبياء، والمغطّاة بأفضل فوطة في المنزل. بعض العمّال كانوا يجلبون ثمار قرعٍ هائلة، وجاكية مختارة بعناية، وأقراط موز. في الخلف، كان الأطفال البدن يتخبّطون في برك الوحل ويتراكضون على الدرب.

– ابقَ هادئاً أيها الصبيّ القذر، ستتسخ ملابسك. هل ستطلب الإكرامية من عرّابك وأنت على هذه الحال؟

يدخل أفراد العائلات ويصافحون الإصبعين المكسوّتين بالخواتم اللتين تمدّهما السيّدة أرليندا إليهم. ثم يقترب الأطفال ويقبّلون يد عرّابتهم بشفاههم التي لا تزال دبقة من عصير ثمار الجاكية. يتحدّث مُلّاك من الجوار في الأعمال مع الكولونيل. وتتأمّل ماريا، من الرواق، المنظر الذهبي لأشجار الكاكاو حيث كنّا عراة حتى الخصر ونشكّل عنصراً طارئاً على المشهد.

تسأل السيّدة أرليندا إحدى النساء: "كيف حال زوجك؟"

– مريض يا سيّدتي. منذ لسعته أفعى تراجعت صحّته ولم يعد كما كان. ربّما أصابته عين حاسدة. ولم يعد لدينا مال للذهاب إلى باهيا ورؤية القديس جوبيابا...

– عن أي عين حاسدة تتحدّثين؟ هذا جرّاء الكسل. لو أنّكم تبذلون جهداً أكثر بقليل، لاستطعتم جني المال في النهاية.

– ليست المسألة في أن نصبح أغنياء يا سيّدتي. لا نريد أكثر من الصحة والفاصوليا لنأكل. وفي ما يتعلّق بالعمل، نحن نكدّ يا سيّدة، نعم.

كانت السيّدة أرليندا تنظر إلى يديها الصغيرتين بأظفارهما المطليّة بإتقان: "لا يبدو أنّ العمل بالصعوبة التي تصوّرينها..."

وتنظر المرأة إلى يديها الكبيرتين الخشنتين وأظفارها السوداء الوسخة وتبتسم ابتسامة في منتهى الحزن. لم تكن تبكي لأنّها مثلنا جميعاً، نحن الذين لم نكن نحسن البكاء. لكنّها كانت تتعلّم الحقد.

كان الجميع يحتسون جرعتهم من التافية ويعودون أدراجهم، فيما ينطلق الصبية راكضين بعد أن ملّوا البقاء هادئين.

وحدث، في مثل هذه المناسبة، أن اصطدم صبيّ بشجرة كاكاو مسقطاً ثمرة فجّة، فما كان من الكولونيل الذي يراقب من شرفته إلا أن هجم على الطفل فجمد في مكانه أمام هول جرمه. رفع مانيه الطاعون المذنب الصغير من أذنيه: "هل سيدفع والدك ثمن فعلتك يا صعلوك؟ كلّ ما يفعله هؤلاء السفلة ملء بطونهم وتخريب المواسم".

أمسك لوح صندوق كان متروكاً هناك واستخدمه كهراوة منهالاً به على الصبيّ الذي أخذ يزعق من شدّة الألم ثم اختُتم الهجوم برفستين.

أغمض كولودينو عينيه مطبقاً على قبضتيه. أمّا نحن، فمكثنا جميعاً جامدين بلا حراك نشاهد الكولونيل يضرب طفلاً ذنبه الوحيد أنّه أسقط ثمرة كاكاو. لعنة الله على الكاكاو!

في المساء، عند انتهائنا من العمل اجتمعنا للثرثرة كما كلّ يوم أمام المخزن. ما تحدّثنا عن مجيء الكولونيل حتى ظهر صاحبنا يرافقه ألجميرو وماريا التي كانت ترتدي منامة حريرية أو ما شابه.

– مساء الخير.

– مساء الخير.

– هل الأمور تسير على ما يرام بالنسبة إلى فروش التجفيف يا كولودينو؟

– بدأت للتوّ تجهيز آخر دفعةٍ منها.

أخذ أونوريو يشحذ سكينه.

– وأنت أيّها الزنجي التنبل على الدوام؟

نظر أونوريو إليه بعينيه العذبتين مبتسماً: "لم أكن في عمري تنبلاً...".

– وأنت يا جوان غريلو، هل سرقت الكثير؟

– لم أعد أجيد الحساب...

سأل مانيه الطاعون ملتفتاً صوبي: "وهذا، من يكون؟"

"شاب من سرجيب"، قال ألجميرو، "إنّه جديد هنا. لم يمضِ على وجوده سنة".

– وكيف نشاطه في العمل؟

– لا بأس...

وجاء دور فالنتان: "ألم يمت هذا الخنزير بعد؟ لا يفيد بشيء، ويبقى هنا مالئاً بطنه مجّاناً".

– لن أذهب من هنا إلا إلى القبر. فمن أكل اللحم عليه أن يعرّي العظام...

ظهر جليّاً أنّ الكولونيل كان رائق المزاج ويمازح الجميع. وكنّا نستمع له بصمت، ورؤوسنا مطرقة وأعيننا على أشجار الكاكاو. لم أكره في حياتي

شخصاً كما كرهت الكولونيل في ذاك اليوم. وفي النهاية، التفت صوب ماريا: "ماذا ألم تختاري بعد؟"

جاءت اللحظة الحاسمة، لحظة الاختيار. كانت ماريا تحدّد عاملاً مهمّته البقاء تحت تصرّف العائلة. نحن مجرّد جماعة من الصيصان، والصوص الأكثر ظرفاً يُفصل عن أقرانه ويؤخذ عند السيّد. كنّا نخاف من أن يقع علينا الاختيار؛ صحيح أنّ العمل هناك أقلّ لكنّ الإهانة أكبر.

توقّفت نظرات ماريا عليّ. أخفضتُ رأسي متجهّماً.

– أريد هذا السرجيبانو، يا أبي.

ربّت ألجميرو على كتفي: "ستكون تحت تصرّف الكولونيل".

وراح يجاملني: "حظّك جيد، أليس كذلك؟ ستكسب المال دون أن تفعل شيئاً، إن جاز التعبير".

أجبت بصوت رتيب فاتر كصوت الكولونيل: "صحيح...".

انصرف الكولونيل وابنته برفقة ألجميرو. نظرت إلى رفاقي. جلس أونوريو قربي: "سيكون ذلك مرهقاً يا سرجيبانو. تلك المرأة من نسل

المتبجّحين. لن أقول لك إلا ذلك. ضقت ذرعاً بها السنة الفائتة. ولكن هكذا هي الأمور. كلّهم أوغاد".

التفتُّ إلى كولودينو.

– كولودينو، ما رأيك، هل ستبقى الأمور على حالها؟

كان الوحيد بيننا الذي بدا كأنّه يتوقّع بصورة غامضة أن يتغيّر شيء ما ذات يوم...

– لا يعقل أن تبقى الأمور على حالها. يجب أن يتغيّر الوضع.

– كيف؟

– أف! لا أعرف...

عاد ألجميرو وأبدى رأيه: "المسألة هي أن تعمل بكدّ لكي تغدو ثرياً".

فأجابه كولودينو: "لا، سيكون هناك دوماً أرباب عمل وأجراء".

– أجل، بطريقة أو بأخرى.

كنّا ننظر إلى أشجار الكاكاو ولا نجد حلاً. لو لم نكن متآلفين مع البؤس، لكانت حالات الانتحار تحدث بيننا كلّ يوم. ترُى ألم تكن هناك أي وسيلة للخروج من وضعنا هذا؟

ظهرت النجوم الأولى في السماء صامتة لا تجيب. والأفاعي التي كانت تفحّ في الحقول أيضاً.

أحضرتُ الماء وقطعتُ الحطب. وساعدتُ في ذبح الفراريج وأتيت بصناديق الليمون وبأقراط الموز. كان فطور عائلة السيّد أغنى بكثير من وجبة الغداء التي نتناولها: قهوة شهيّة بالحليب، خبز، جبنة، أرز محلّى، تابيوكا[32]، وأصناف أخرى كثيرة... كانت منامة ماريا مزدانة برسومات في منتهى الغرابة. جلست عند باب المطبخ. قدّمت إليّ الطبّاخة كوباً من القهوة.

32 النشا المستخرج من جذور شُجيرة خشبية شهيرة في أميركا الجنوبية.

– شكراً سبق وشربت.

تعجبَتْ من رفضي.

– قهوة شهيّة بالحليب، اشرب أيّها الأحمق.

– لا شكراً.

– على الأقلّ تناول شيئاً من الأرز بالحليب.

– لست جائعاً.

– كلْ فقط لكي لا تكسفني...

أذعنت لطلبها ورحت آكل ببطء هذه التحلية اللذيذة حين ظهرت ماريا وقالت على سبيل المزاح: "لم تذق هذا من قبل، أليس كذلك؟"

– في بلادي يطهون منه الكثير، يا آنستي.

نظرت إليّ مندهشة.

– آه، صحيح أنت من سرجيب أليس كذلك؟ هناك يطهون الأرز بالحليب كثيراً. ذهبت إلى أراكاجو ذات مرّة. رقصنا... قل لي هل تحسن القراءة؟

– نعم.

– والكتابة؟

– نعم.

– هذا نادر... عموماً أنتم جميعاً جهلة.

– نحن منسيّون من العالم.

– لم أطلب رأيك. تعال واكتب لائحة بالغسيل الوسخ.

دخلتُ بسروالي القطنيّ الأزرق الملطّخ بالوحل وقميصي الكتّان المرخيّ والسكّين المرتطم بفخذي. أحصت ماريا: "ستة سراويل، اثنا عشر منديلاً، أربع منامات..."

تفحّصَت كتابتي ثم نظرت إلى شعري الفاتح وابتسمت بسخرية لدى رؤيتها ملابسي. لم أكن مرتبكاً لا. ما شعرت به كان الحقد.

– خذ الغسيل إلى سينيا مرغريدا. قل لها أن يكون جاهزاً نهار السبت.

– نعم آنستي.

– اسمع. اليوم بعد الظهر جهّز لي حماراً كما يجب لأقوم بنزهة...

ذهبتُ حاملاً بقجة الثياب المتّسخة. وحين مررت بالمزرعة القديمة لجوان إيفانجيليستا، قال لي الشباب مازحين: "ماذا أيّتها الخادمة، ستغسلين الملابس في النهر؟"

فرفعت لهم إصبعي الأوسط مبتسماً وذهبت مع حقدي غير المجدي على ابنة السيّد.

– هل الحمير جاهزة؟

– الحمار الذي طلبته الآنسة بات جاهزاً.

– وحمارك؟

– هل سأذهب أيضاً؟

– هل تريدني أن أذهب وحدي؟ ومن فضلك اغسل وجهك...

"ضع سرج ألجميرو القديم"، أمرني الكولونيل، "ولا تؤذِ البهيمة".

انطلقنا بصمتٍ إلى الميدان. كانت شمس الشتاء الفاترة تضيء الريف.

– منظر جميل...

وأمام صمتي سألتني: "هذا جميل، ألا توافق؟"

– هذا حزين. من يعيشون هناك يتألّمون.

– هل قررت أن تعطيني درساً عن حياتك؟

– لا يا آنستي، آنستي هي السيّدة، لديها الحقّ في أن تعرف.

– حياتك لا تهمّني. لم أخلق أبداً لأكون أختاً راهبة.

– ولا أحد منّا خُلق ليكون عبداً.

– أجدني مجبرة على إعادتك منذ صباح الغد إلى العمل في المزرعة. أفضّل أونوريو الذي ينظر إلى الناس بنظرة قاتل لكّنه لا يقول شيئاً. اخترتك لأنّني أشفقت عليك. أنت أبيض البشرة وصغير السن.

– شكراً.

– لماذا تكرهنا إلى هذا الحدّ؟ وما ذنبنا إذا لم تكن ثرياً؟

– نحن لا نريد أن نكون أثرياء.

– إذاً، ماذا تريدون؟

– لا أعرف...

توقّفنا. جلسَتْ تحت شجرة جاكيه كبيرة. أوثقتُ الحمير وانتظرتُ. رأيتها تفتح كتاباً جلبته معها.

– تحسن القراءة أليس كذلك؟

– نعم.

– اقرأ بصوت عالٍ لأسمعك.

ناولتني الكتاب. كان يتحدّث عن قصّة حب تستهلّ بوصف حفلة. وبدأت أقرأ بطريقة آليّة عن كؤوس الشامبانيا، والنبيذ، والفوكستروت[33]، والفالس، والنوادر والمجاملات. حين قلبت الصفحة لاحظت أنّني وسّخت التالية بأصابعي.

33 رقصة مشتركة ظهرت بين عامي 1910 و1915 في أميركا الشماليّة.

– وسّخت الكتاب، يا آنستي.

– آلمك وصف الحفلة أليس كذلك؟ لا بدّ أنّه أيقظ فيك الرغبة في احتساء الشمبانيا...

– لا أحبّ الشراب. أشرب التافية لأنّها ضرورية هنا.

– أنت سيئ الخلق.

– أنا عامل، ولم أتلقَّ أي تربية تذكر.

أخذتْ الكتاب وتمدّدت لتقرأه. ورحتُ أقطف أزهار الأقحوان البرية.

– يبدو أنّ التربية التي تلقّيتها ليست سيّئة.

– الأزهار لماغنوليا، خطيبة كولودينو.

– آه، فهمت!

بدأت تقرأ من جديد مشاهد الحب التي أبطالها الأشراف والكونتيسات الأوروبيّات، فيما سرّحت نظري إلى الأفق البعيد سعيداً برؤيتي متحرّراً غداً من ابنة السيّد. على طريق العودة، صاح بي أحدهم من الحقول: "أتقوم بدور الحاضنة يا سرجيبانو؟"

غضبت ماريا. لم تكن تحتمل المزاح من جانب العمّال فجميعهم في نظرها أغبياء.

– اذهب وتحقّق مَن يكون هذا العامل لأحمل والدي على طرده.

فحدجتها بنظرات أجفلتها للحظة. ثمّ ما لبثت أن قالت: "لا تريد أن تشي بالآخرين أليس كذلك؟ لا أحد منكم يستحقّ قُوتَهُ".

لم ترجعني للعمل في الحقول كما وعدت. لكن في اليوم التالي عاملتني بجفافٍ وتكبّر يليقان حقّاً بابنة مانيه الطاعون.

– افعل هذا... افعل ذاك.

كان شعرها الأشقر وبشرتها البيضاء يتلاءمان مع منامتها الوردّية.

– اذهب وائتِني بأزهار لتزيين البيت ولا تهدِ أجملها لتلك الفلاحات. حتى الأزهار لا تسلم من أذيّتكم.

غمزتني الطبّاخة: "أناس قذرون. وأمّها أسوأ منها، أمّا الابن...".

لم يكن يفترض بالابن أن يصل قبل الأسبوع المقبل. كان في باهيا، في الكليّة.

– إذاً ها أنت حاضنة الكولونيلة الصغيرة؟

– عمل مقرف...

– إنّها تهينك في كلّ لحظة، أليس كذلك؟

– لكنّني أردّ لها الصاع صاعين، يا كولودينو.

فنصحني أونوريو: "من الأفضل كمّ فمك. ليس سهلاً العثور على عمل. إذا طردتك..."

– وإن فعلتْ؟

أخذ كولودينو قيثارته وذهب إلى ماغنوليا. كان جوان غريلو يغني في الليل الدامس المليء بالأشباح. بدأت أحلامي تتغيّر. كنت أحلم بالكاكاو، ثم لا يلبث أن يختفي الكاكاو ليظهر مكانه شعر ماريا الذهبي.

الشاعرة

في زاوية قرب الموقد، أعلمتني الطبّاخة بأنّ ماريا تكتب الأشعار. كانت تمسك إحدى صحف إيليوس، وظهرت في عمودين من الصفحة الأولى صورة قلميّة للشاعرة مرفقة بالمديح.

... ماريا تيليس الحسناء البالغة الأناقة، ابنة الكولونيل التقدميّ والمعطاء مانويل ميسايبل دو سوزا تيليس، هي إحدى المواهب الأدبيّة الأكثر إشراقاً في البلاد. موهبة من طراز رفيع، وذكاء يلهمه نَفَس إلهيّ: تكتب أبياتاً شعريّة رائعة بيديها الأرستقراطيّتين، يديْ فنّانة أصيلة، كهذه الأبيات التي ترونها هنا. إنّها سوناتة[34] من إلهام ولا أسمى، مهداة إلى رفيقاتها في الصف. إنّ صحيفة "إيليوس" تتشرّف بنشر قصيدة الشاعرة الشابّة والموهوبة ابنة وطننا!

34 من أهم أنواع الشعر الغنائي الذي انتشر في أوروبا. تتألف السوناتة من أربعة عشر بيتاً بأوزان وقوافٍ مدروسة وتركيب منطقي.

هاكم السوناتة:

إلى السنة الرابعة المأسوف عليها
أقول لك وداعاً أيّتها السنة الرابعة،
أمضيت فيك أيّاماً مشرقة سنيّة

وأنا أصلّي من أجل رفيقاتي العزيزات
عند قدمي يسوع الوديع العذب!
وداعاً يا صفّي المرموق،
رغماً عن ألسنة السوء!
وداعاً يا رفيقاتي العزيزات
وداعاً يا سنة رابعة لا تُنسى،
وداعاً يا رفيقاتي اللطيفات،
من أجلكنّ جميعاً يخفق قلبي
مثل أفق من نور!
وداعاً مرّة أخرى وداعاً
أبداً لن أنساكن، ومن أجلكنّ،
تصلي شفتاي كلّ يوم لمريم العذراء!

لم أكن قط خبيراً بالشعر لكنّ هذه السوناتة بدت لي شديدة التفاهة. غير أنّ رأيي لم يكن يتوافق مع رأي أحد مثقّفي بيرانجي الذي أرسل إلى ماريا هذه الرسالة المطبوعة (تركتْها تسقط من أحد الكتب وقرأتُها في المساء):

بيرانجي، إيليوس،
(باهيا)، في 28 ديسمبر ...193
يا زميلتي الغالية، تحيّات من القلب.

في معرض التحضير لحولية بيرانجي الأدبية-التجارية لسنة 193...، التي أتولّى إدارتها، أسمح لنفسي بأن أطلب منك مشاركتك القيّمة فيها، وكلّي إيمان بأنك ستوجّهين إليّ في الوقت الملائم إحدى التجلّيات المشرقة لموهبتك الرائعة.

ستوضع الحوليّة الأدبية-التجارية قيد التوزيع في يناير المقبل وستحتوي قسماً أدبياً مهمّاً، وآخر فيه أحاجٍ وعلوم ومعلومات عدة متعلقة ببيرانجي بالإضافة إلى فهرس عامّ وأسماء جميع التجّار والصناعيين وملّاكي المقاطعة وسير حياة البرازيلين المشهورين وصور قلميّة للأعيان والسياسيّن النافذين المقيمين في إيليوس، وأيضاً هناك لمحة عن أفضل المباني في المحلّة وأهمّ الأملاك الزراعية.

باختصار: ستكون الحوليّة عملاً ذا قيمة حقيقية معدّاً على غرار أفضل الحواليّات الموجودة في البلاد.

إذاً، ستكون مشاركتك، في قيمتها الرمزية، خدمة لأدب بلادنا، وفي الوقت نفسه أحد أفضل المساهمات المؤازرة للتقدّم، والشهرة المجيدة، والطاقات الرائعة التي تحفل بها هذه المنطقة، وهي جزء صغير ولكن خصيب من برازيلنا المعبودة.

وإذ أؤكّد لك جهوزيّتي التامّة لتقديم خدماتي المتواضعة، سأظلّ لجلالتك الزميل والمعجب.

وفي اليوم التالي أعدتُ الرسالة المطبوعة إلى ماريا.

– آنستي، سقطت منك أمس هذه الورقة.

– وتتركها معك طوال هذا الوقت؟

– نسيتها في جيبي.

أخذت الورقة، قرأتها واعترفت قائلة: "يطلبون منّي الكتابة في إحدى الحوليّات التي تعنى بالمنطقة. لدي رغبة في أن أصف العزبة...".

– فكرة جيّدة.

– ... الأعياد، جمال المزرعة، الحياة الجميلة التي تعيشونها...

– الجميلة؟

– أليست كذلك؟

– لا، بل أكثر!

– لديكم سقف وطعام وثياب ومال...

– ليس دائماً.

– هل تجد أنّ ما يقدّم إليكم غير كافٍ؟

– هل كانت آنستي لتكتفي بهذا القدر؟

– وقح! بأيّ حق تسألني هذا السؤال؟

– آنستي ستكتب عن حياتنا ولا أريد أن تكون مخطئة.

– الزم حدودك...

– إذا كانت هذه الحوليّة ستنشر المقالة، سأكتب أيضاً بعض الأشياء عن حياتنا.

– أنت؟! آه! أنت تمزح!

وأمعنت في الضحك ثم توقّفت فجأة وحدجتني طويلاً.

– أنت لست كالآخرين... ما الذي جاء بك إلى هنا؟

– نحن جميعاً متساوون، جميعاً مستغلّون...

– لا تكن غبياً!

وبدا الغضب على سحنتها.

– أنت أيضاً تكرهنا دون أن تعرف هل هناك أشرار أو أخيار بيننا.

أخبرتها قصّتي فاستمعت لها بصمت.

وختمت بقولي: "كما رأيت، يا آنستي، أنا مثلهم جميعاً. نحن صنف على حدة. ولدت عند أناس 'محترمين' لكنّني اليوم منحاز كليّاً إلى العمال وأنا راضٍ بقسمتي؟"

– أنت راضٍ عن هذه العيشة البائسة؟

– الأمر لا يستحقّ أن نكون أغنياء، ومن يدري قد يتغير هذا يوماً؟

– هل أنت اشتراكي؟

– لا أعرف هذه الكلمة.

لم أكن أعرفها، هذا صحيح. وماريا لم تشرحها لي. ربّما كانت هي نفسها لا تعرف ماذا تعني.

– ألا تفكر في أن تصبح ثرياً مثل ألجميرو؟

– لا!

– لماذا؟

– لأنني لا أعرف كيف أستغل العمّال.

بعد الظهر، كّنا نذهب إلى بيرانجي. كان الشّبان في المحلّة يرمقون ماريا بنظرات شهوانية. كانت جميلة ووريثة ثروة طائلة. أميرة خرافية بالنسبة إلى الوكلاء التجاريّين الصغار. كانوا يحلمون قائلين: "لو أنّها تقع في غرامي".

– بإمكاني أن آكل وأنام مرتاحاً في الشمس.

كانت ماريا تمرّ دون أن تراهم، مكابرة كأنّها إلهة. وسط الطريق كان أعمى أشيب الشعر يستعطي. رمت له ماريا قطعة نقديّة. تذكرتُ أنّني رأيته.

– عمل لدى الكولونيل من زمان. صار أعمى.

– هذا لا يهمّني، اصمت.

– لو عرف أن الصدقة تأتي من الآنسة، ربما ما أخذها...

كانت ماريا تضحك بجنون وشعرها شعّثته الريح.

– أنت نموذج المثالي الرومنطيقي.

– لا أفهم هذه اللغة المتفاصحة.

عندما كان كولودينو يعود من عند ماغنوليا يحتدم الحديث. يتوقّف جوان غريلو عن سرد قصصه القديمة، ويمتنع فالنتان عن رواية ذكرياته عن حرب كانودوس[35] التي شارك فيها أيّام صباه إلى جانب أنطونيو كونسيرو[36]، ويطلق أونوريو نكتة ما، ونروح نثرثر مع كولودينو النجّار الذي رغم سنواته السبع والعشرين، كان يحسن القراءة والكتابة، ويعزف على القيثارة ويهوى التحدّث، ويبدو لنا أشبه بمعلّم. كان لديه

في الواقع حدس بالنسبة إلى الكثير من الأشياء. وكان ينوي أن يغادر المزرعة ما إن يتزوّج ويذهب إلى ريو دو جانيرو. لم يكن مؤمناً ولا مهتمّاً بأيّ شعوذة، ولا قادراً على أيّ حماقة، شديد الحرص على رفاقه كأنّه أخ لهم. كنت أشاركه أفكاره حول الكثير من المواضيع. لكنّ بعض الرفاق، مثل أونوريو لا يفهمون ما يرمي إليه ولا سيّما أنّ كولودينو لم يكن ذاك المثقّف الكبير وكان يجد بعض الصعوبة في التعبير عن أفكاره. أحياناً كنت أُفهِم رأيي فيثبّتني النجار فيه: "هذا صحيح. هذا هو الأمر بالضبط. لا تتعلّق المسألة بأن نطمح إلى أن نكون أرباب عمل مثل ألجميرو".

35 نزاع مسلّح في نهاية القرن التاسع عشر في البرازيل بين جيوش باهيا النظاميّة وفريق من 30 ألف مستوطن مقيمين شمالي شرقي باهيا بالقرب من مزرعة كانودوس القديمة.

36 واعظ علماني ورجل دين من أتباع الألفيّة المؤمنين بعودة المسيح، وكان الملهم الروحي لحرب كانودوس.

كنّا نعرف القليل عن هذه المسائل لكنّنا كنّا نرتاب من أمر ما، فالبؤس معلّم. في ذاك المساء، استجوبني كولودينو: "قلْ لي، كيف الحال مع ابنة مانيه الطاعون؟"

– أعتقد أنّها حاقدة عليّ بطريقة غريبة، لأنّني أواجهها وأبادرها بتلك الأجوبة...

– لا تتوهّم على الأقل، ولا تكن سهل الانخداع...

– أنا؟

قال جوان غريلو مازحاً: "إلا إذا كانت مغرمة بك!"

– لن تنام هنا...

قلت وأنا أشير إلى السرير المصنوع من الألواح القاسية...

– يمكنك أن تنام في سريرها هي...

– لا أريد أن أكون سيّداً.

كان كولودينو يشجّعني.

– اجعلها توافق، تلك الطائشة.

في اليوم التالي، أرسلتني ماريا لأجلب لها الأفندي. عندما عدت أمرتني أن أحمل الفواكه لوضعها تحت شجرة الجاكية. ثم توجّهَتْ إلى هناك متأبّطة كتاباً.

– تعال معي.

– عليّ أن أقطع الحطب.

– وهل تتركني وحدي تحت شجرة الجاكية؟ مع الأفاعي؟ ستقطع الحطب لاحقاً، ليس الأمر مستعجلاً.

عندما قلبت الصفحات الأخيرة من الكتاب قالت لي: "إنها قصّة جميلة. كونتيسة تذهب إلى قصر في الريف وتُغرم بفلاح. فتعارض العائلة لكنّها تتزوّج والفلاح يصبح كونتاً. ويعيشان سعيدين".

– حكايات جنيّات.

"لا، هذه رواية"، ضحكت، "ألّفتها كاتبة فرنسية. ألا تجد ذلك جميلاً؟"

– لكنّ الفلاح خائن.

– من خان؟

أربكني السؤال. ابتسمت ماريا بغلبة.

– خان العمّال الآخرين.

– كيف، بأنّه ظفر بحياة أفضل؟

لم أجب.

– وأنت ألن تتزوّج الكونتيسة؟

– بداية... الكونتسة لن تحبّني.

– أنت تتهرّب من السؤال. ماذا لو كانت تحبّك وأنت تحبّها؟

– إذا كانت تحبّني، في وسعها أن تصير زوجة العامل.

شعرت بالارتباك هي الأخرى. لكنّها أجابت بعد بضع دقائق: "وهل سيكون في مقدورها أن تعتاد هذه الحياة؟"

– وهل سيكون في مقدوره أن يعتاد حياة الترف؟

– أظنّه قادراً، نعم...

– ربّما... لكنّه خائن.

اكتفت ماريا بالجواب: "حسناً، لكنّ هذه القصص تحدث أحياناً في الحياة الحقيقية".

أخبرتُ كولودينو بما دار بيننا من حديث، فقال لي: "إنّها متأثّرة بالروايات العاطفية كجميع الفتيات اللواتي يتعلّمن في مدارس الراهبات. سترى، ذات يوم سترغب في أن تتزوّج بك".

– وهل أنت مجنون، يا كولودينو؟

قرأت لي ماريا المقالة التي سترسلها إلى الحوليّة. كانت تصف بطريقة رديئة، أو على الأصحّ سطحيّة، العزبة والأعياد وحياة العمال. وكان الختام على هذا النحو تقريباً:

... وهم مسرورون بعملهم النزيه. يمرحون ويعزفون على القيثارة ويحبّون أرباب عملهم ويقدّرونهم فهُم أهلهم وأسيادهم الذين بدورهم يعاملونهم جيداً كما يعامل الأهل أولادهم. ربّما من أجل هذا تبقى خطب المنظّرين ذوي الأفكار الغريبة الذين يعلنون ظهورهم في المزارع دون أهميّة تُذكر...

ونبّهتني: "هذا المقطع الأخير مهدىً إليك".

فبقيت فاغر الفم من الدهشة والذهول.

عيد الذرة

قررنا أيضاً أن نحتفل بعيد القدّيس يوحنا. سيجري الحفل الراقص عند دونا خوليا. قدّمنا زجاجات وزجاجات من التافية، وقطفنا الذرة التي زرعتها ماغنوليا خلف المنزل. إنّه عيد حقيقي، ولا سيّما مع الكانجيكا والبامونيا والمونغوزا والأساسا والأكاراجيه[37] بالفاصوليا الصفراء، وحساء الذرة، والتافية. وأشعلنا ناراً كبيرة أكثر توهّجاً من نار الكولونيل.

37 كلها أطباق تقليديّة ترافق عيد القدّيس يوحنا في البرازيل.

هناك، في منزل الكولونيل، كانت التحضيرات على قدم وساق. جبال من عرانيس الذرة الشقراء كشعر ماريا ترتفع في المطبخ. رحت أكسر الحطب لأضرم النار، وانتزعت دونا[38] أرليندا خواتمها لتساعد الطبّاخة في إعداد الكانجيكا.

38 سيّدة في اللغة البرتغالية.

أعدّت الدسوت الهائلة، والملاعق الخشبيّة العملاقة، وأعواد الذرة لتغليف البامونيا.

كنت ما إن أحظى بوقت فراغ، أهرع عند دونا جوليا. كان العمل أقلّ لأنّ كومة الذرة أصغر بكثير. وبدلاً من الدسوت، استُعمِل طشت قديم سّدّت فجواته بخرقة، وكانت ماغنوليا تحرّك كل هذا بملعقة خشبيّة مقبضها مكسور.

اختلى أونوريو وجوان غريلو وأوصدا الباب خلفهما لينصرفا إلى تجهيز شيء ما غامض بعيداً عن نظراتنا المتطفلة.

جاء ابن الكولونيل من العاصمة مصطحباً معه صديقين. يوم وصولهم، أطلق أحد الصديقين فكرة نفخ بالونات، عشرات البالونات كما العادة في باهيا. لكن الكولونيل اعترض قائلاً إنّ الذبالات المشتعلة يمكنها أن تسقط على المزارع وتضرم النار في أشجار الكاكاو. لم يكن يقبل العبث مع الكاكاو...

كان المطبخ أشبه بجهنّم؛ حرارة مرعبة تأتي من الفرن. أصبحت اليدان السوداوان للطباخة صفراوين من الذرة. صرخت بي دونا أرليندا: "ابرش جوز الهند يا سرجيبانو!"

ثقبتُ جوزات الهند وسكبتُ حليبها في كوب لأقدّمه إلى أوزوريو كي يشربه. وبعدئذٍ أخذت أبرشها وأبرش معها أصابعي التي قلّما كانت معتادة هذا العمل.

– ماريا، أحضري السكّر.

حين دخلَتْ كنت أمصّ إصبعي الذي يسيل منه الدم.

– هل تقوم بدور الطبّاخ؟

لاحظت دونا أرليندا إصبعي المجروح.

– لا تلطّخ جوز الهند بدمك، أيّها المقرف.

كان ألجميرو يذبح خنزيراً قرب المورد، وجوان غريلو يلتقط الدجاجات: "تعي! تعي! تعي!"، وينثر حبوب الذرة.

دونا أرليندا تعطي الأوامر: "أريد هذه الدجاجة المبّقعة وهذا الديك المسمّن الأصفر. وأيضاً هذه الدجاجة الصغيرة دون ذنب".

كانت الفتيات يحدّقن في لَكَنِ الماء لعلّهنّ يستطلعن، كما درجت العادة في هذا العيد، هيئة الخطيب المقبل.

– يا للفتى الجميل، يا قدّيس يوحنا الطيّب. لكأنّه طالب من المدينة!

– أف! أنا فتاي عجوز أصلع. لا أريده...

لم تكن هؤلاء الفتيات يحظين بخطّاب إلا في ما ندر. أمّا العشّاق، فحدّث ولا حرج... كنّ يعرفن ذلك. لكنهن رحن ينظرن إلى الماء الراكد بانتباه، متشبّثات بوهم قليل.

في منزل رب العمل أيضاً، كنّ يقرأن طالعهن في طشت الماء. طشت جميل من الخزف اسمه معقّد ومزدان برسوم. أحد الشبّان الذين اصطحبهم أوزوريو معه كان يكتب أشعاراً وينشرها في صحف باهيا. تزوّق وتهندم أمام ماريا التي كانت تعاين للتو طشت الماء: "أو تكون عيناك الجميلتان قد رأتا وجهي القبيح؟"

أشارت ماريا بحركة اتجاهي وكنت في الرواق أنتظر الأوامر لأنصرف.

– بل وجه سرجيبانو.

أشعرتني القهقهات أنّها سياط تجلدني. ربما كان في وسعي أن أقول إنّني غادرت وقلبي جريح لولا أنّني سأكون كاذباً في هذه الحالة. غادرت مليئاً بالحقد تجاههم كلّهم وتجاه كلّ شيء. في العتمة، وأنا عائد إلى عند دونا جوليا، انتزعت ثمرة كاكاو وسحقتها بحجر.

كانت "قبّولتنا" أعلى بشبرٍ من "قبّولة" الكولونيل، وترسل لهباً عالياً نحو السماء المزدانة بالنجوم. قصب السكر والبطاطا الحلوة يُشويان على النار. أونوريو يؤدّي رقصات الماكومبا وهو يأكل الذرة المسلوقة. كان سكان العزبة قد أتوا جميعاً ومعهم عمال من المزارع المجاورة. أخذ الجميع يرقصون على نغمات الأركورديون رقصات فالس وسامبا قديمة. على التراب المركوم، كانوا يرقصون السامبا، وزجاجات التافية تفرغ.

– يعيش القديّس يوحنا!

– هل تقّدم الأكاراجيه؟

– مع فلفل كثير أو دونه؟

– مقدار ملعقة طعام.

وكنّا نلتهمها دفعة واحدة.

– هل هي لذيذة؟

– بالتأكيد... والآن جرعة عرق لو سمحت.

– هل نرقص، سيّدتي؟

– أنا متعبة، اعذرْني.

– العفو. لو كنت أعرف، ما أزعجتك قط.

وكان جوان غريلو يكثر الكلام.

ودار جدال حول العرق.

– هذا العرق الذي من عند أنتيرو العجوز هو الجيّد...

– أرجوك! أتحسب هذا عرقاً؟ إذا أردت عرقاً يشربه الرجال ما لك إلا عرق سنيو.

– أوه! أنا لا أشرب منه ومع ذلك هذا لا ينقص رجولتي. باستطاعتك التأكّد.

– لا تتباهَ، لن أصاب بالذعر، مفهوم؟

"مهلاً أيّها الرجال؟ لن تتعاركوا هنا... احترموا المنزل على الأقل!" قالت دونا جوليا.

جرعة تافية وساد الوفاق من جديد.

– ما ألذّها!

وتعانقا منتظريْن قدوم فتاتين.

– هل نذهب؟

– أجل.

الأكورديون في آخر الصالة يُجذب ويُضغط إلى أقصاه مرسلاً نغماته.

أخذ العرق يتصبّب غزيراً من الرجال والنساء وملأت رائحته الصالة.

– يا لهذه الرائحة!

– نيلو، هل أكثرت من زيت الشعر؟

– إنها رائحة آباط الفتيات اللواتي لم يعرفن رجلاً بعد...

كانت النساء يخرجن من الباب المؤدّي إلى حقل البقول.

– إلى أين تذهبين يا دونا ريتا؟

– لأبول قليلاً، لم يعد بإمكاني تمالك نفسي.

– انتبهي من البصّاصين.

– لن يروا شيئاً مهمّاً، اطمئنّوا.

كان جوان غريلو، في بذلته الكتان، يدور بسرعة حول نفسه في الصالة.

حيّاه أونوريو.

– تبدو في لباسك مثل وكيل تجاري.

– شكراً أونوريو.

– آه يا بني، هل تعطيني كوب ماء؟

– كوب ماء للسيدة فولو...

– شكراً.

– هل سنرقص رقصة السامبا هذه؟

– لا أتقنها جيّداً.

– ولا أنا أيضاً.

– لا بأس.

– لا تقرصني، يا سيّد أونوريو.

– لم أقصد، اعذريني.

كانت صورة القدّيس يوحنا موضوعة في الصالة بين شمعتين.

رحنا نقفز فوق النار. قفزتُ مع ماغنوليا. وقفزنا جميعاً تقريباً وبدأنا نسمّي بعضنا رفيقاً ورفيقة. دونا إيزابيل قفزت أيضاً رغم بطنها الهائل.

– متى يحين موعد ولادة الطفل؟

– في الشهر المقبل، يا بنيّتي.

– فلتساعدك سيّدة الرحمة، فتلدي بسلامة...

– آمين. لكنّني اعتدت ذلك. هذا طفلي الحادي عشر.

– أعطني بطاطا مشوية، يا رفيق...

– حرقت إصبعي.

– عذراً.

هبّت ريح قوية، وظهرت غيوم سوداء، وسقطت أوراق أشجار الكاكاو باصطفاقٍ بهيم.

"علينا أن نطلق البالون قبل هطول المطر"، اقترح أونوريو.

إذاً، تلك كانت المفاجأة التي كان أونوريو وجوان غريلو يعدّانها: بالون ضخم مصنوع من ورقٍ بألوانٍ مختلفة ومزوّد بسدادة كبيرة. صفّقنا للإنجاز. تسلّق جوان غريلو سلماً ليثبّت قمة البالون، فيما رحنا في الأسفل نضغط الهواء لننفخه.

كنّا منكبّين على هذه المهمّة فلم ننتبه إلى وصول عائلة الكولونيل: أوزوريو والشابّان وماريا، ويرافقهم ألجميرو وجوان فرميليو.

هتف الشاعر: "صنعتم بالوناً! عافاكم الله! سيحمل تحيّتنا إلى عمّنا القمر وإلى النجمات أخواتنا الصغيرات".

التفتنا جميعاً ففرغ البالون. أمرنا الشاعر: "انفخوه. انفخوه. لا تضيّعوا الوقت. قبل أن تمطر".

نسوا أن يقولوا لنا إنّ الكولونيل حظر البالونات. وما إن امتلأ البالون بالهواء وانتفخ، حتى أفلت منّا. رأيت كولودينو متشنّجاً. جلت المكان بنظري وفهمت. في إحدى الزوايا المنفردة، كانت ماغنوليا تصغي مبتسمة إلى مجاملات أوزوريو. حدّقتُ إلى كولودينو فلم أرَ في وجهه عضلة تختلج. تابع إمساك البالون بصمت. أحضر أحدهم الجذوة. تمتم الشاعر موهناً: "ماريا هي من يفترض بها أن تشعل الذبالة".

استولت ماريا على الجذوة وقرّبتها من الذبالة.

وارتفع البالون جميلاً مزدهياً بألوانه المتناسقة وراح يعلو متطايراً ناحية المزرعة خلف النهر. كانت أعيننا محدّقة إلى السماء. وما لبث أن وصل الكولونيل.

– من أطلق هذا البالون النحس؟ ألم أحظر عليكم ذلك. وماذا لو أضرم النار في المزارع؟ أيّها الأوباش...

كان صوته الرتيب يرتجف غضباً. بدا على شفا البكاء وراح يشتمنا متلّفظاً بكلمات بذيئة دون أن يراعي وجود ابنته: "أنتم حثالة...".

ارتفع البالون على مهل. وفجأة أمسكته الريح ففقد توازنه وانقلب. وانتقلت نار الذبالة إلى الورق. وأخذ البالون يسقط سريعاً والكولونيل ينتف شعره: "اركضوا اركضوا يا لصوص لإخماده، لا تجعلوه يحرق المزرعة".

هرعنا كلنا. اندلعت النار في الأوراق اليابسة وهدّدت بإتلاف الشجيرات. سكبنا الماء من المطرات. لكنّ المطر الذي تساقط أطفأ النيران. وحده جذع شجرة كاكاو تجرّد كلياً من أوراقه واحترقت ثماره.

صرخ الكولونيل وهو يكزّ على أسنانه: "يا أولاد القحبة".

ثم سأل: "من صنع هذا البالون؟"

تقدّم أونوريو قائلاً: "أنا".

- عليّ أن أطردك أيّها الحقير.

لكنّ أونوريو كان يعرف أشياء كثيرة عن حياة الكولونيل...

عدنا تحت وابل من المطر. كان أوزوريو يغتنم الفوضى لمصلحته كي يداعب ماغنوليا.

غير أنّ كولودينو لم يكن غبيّاً. سرعان ما لاحظ أنّ ابن السيّد يغوي ماغنوليا بنظراته. الأسوأ في الأمر أنّ ماغنوليا كانت متواطئة معه، وتشعر بكبير اعتزاز دون شكّ نظراً إلى الإيثار الذي يمنحها إيّاه الخرّيج الجامعي العتيد.

كان يفترض بأوزوريو أن يحصل على إجازة الحقوق آخر العام، وبدأ الكلام يدور عن الحفل الذي سيقام له. كان نحيل القوام، يرتدي نظارات إطارها قَرْنيّ، سمين الأصابع مفتولها، يضع الكثير من الزيت على شعره الأسود فيبين في الشمس لامعاً كأنّه مرآة. كانوا يقولون عنه إنّه أحد أفضل طلاب الحقوق في باهيا، وإنّه "مفخرة أساتذته وزملائه" (كما أشارت إلى ذلك صحيفة "إيليوس"، غداة قدومه إلى العزبة). لم يكن قد أنهى سنته الثالثة بعد حين بدأ تدرّجه في قصر العدل بدفاعه عن سارق برّأه المحلّفون إكراماً لثقافة أوزوريو، وثروة أبيه مانيه الطاعون. كان يذهب إلى القدّاس كلّ أحد، في بيرانجي، واضعاً شريطاً أزرق في عنقه

بمكانة شعار لإحدى الأخويّات الدينية التي لا أعرفها، وكان لديه في غرفته سلسلة من الكتب الداعرة مزدانة برسوم. لدى كل زيارة يجريها إلى العزبة، كان يصطحب معه رفيقين أو أكثر ليتسنّى له، على حد قوله، "التمتّع بسلام الريف بشكل أفضل".

كان رفاقه يأكلون بشراهة مفرطة ويشربون ويلهون في بيرانجي مغازلين بنات التجّار العرب وممتنعين عن الدفع للبائسات في شارع الحمأة.

كان مرور هؤلاء الشبان القانونيّين الصاعدين بمزارع الكاكاو يترك دوماً خلفه ثلماً يحرثه دم العذارى. وهكذا يُرفد شارع الأوحال بالنساء الجديدات. نادراً ما كان أحد هؤلاء الشبّان ينال الغدر منه جانباً. فأبناء الكولونيلات أنصاف آلهة مستبدّون يهوون فضّ بكارة الفلاحات ذوات الأقدام الضخمة والأيادي الخشنة لتمضية الوقت. كان هؤلاء الفتيان متبجّحين يتحذلقون في كلامهم. كانوا عديمي الرحمة سيّئي الخلق، ويثيرون فيّ قرفاً لا يوصف. كولودينو أيضاً لم يكن بإمكانه تحمّلهم، ولا أذكر إطلاقاً أنني سمعت النجّار يجيب عن أيّ من أسئلتهم.

مخافة أن يتنجّسوا كانوا يتركون مسافة عندما يتحدّثون إلينا ناظرين بحنانٍ إلى أشجار الكاكاو التي تزوّدهم بالمال للهو والمجون في فنادق باهيا الأرستقراطية...

كانت أمطار يونيو تجعل كلّ شيء موحلاً، والطرقات غير سالكة تقريباً. كنا ننزلق على الوحل حيث الحمير نفسها تتعثّر، الأمر الذي كان يتطلّب من أنطونيو باربغينيا انتباهاً خاصاً. ومع المطر، تخرج الأفاعي الحائرة بحثاً عن ملجأ. ونحن، في أكواخنا المغمورة بالماء التي يتطلّب تجفيفها جهداً كبيراً، كنّا نشعر بسوء المزاج وبأنّنا على شفا هاوية. عبثاً كانت الشمس تجهد لتخترق الغيوم. حينئذ تصمت القيثارات ونضطرّ أن نشتري أغطية قذرة بأثمانٍ باهظة. أمّا أشجار الكاكاو، فكانت بديعة بثمارها الذهبيّة التي تتساقط منها قطرات الماء لآلئَ برّاقةً. لكنّنا لم نكن نعير التفاتة إلى جمال المنظر، وينحصر همّنا في السروال المبلول الذي التصق بجسدنا وأثقله الوحل. أمّا النساء، فيسدلن شعورهنّ الطويلة ويحتسين العرق طلباً للدفء.

توقّف العمل في فروش الكاكاو، وأخذ كولودينو يمضي وقته ينشر الحطب في الأرض التي اشتراها الكولونيل لدونا دونينيا، بالقرب من منزل ماغنوليا التي كانت ترسل إليه وجبته والشراب. كان كولودينو يحتفظ بسيماء متجّهمة، لا يوجّه أيّ سؤال ولا يخوض أيّ جدال. ذات مساء مرّ أوزوريو بمسكن دونا جوليا. ترجّل عن حصانه متصنّعاً في كلامه.

– مساء الخير!

أوقف كولودينو قيثارته.

– دونا جوليا، أود أن أسألك: من صنع حلوى الذرة ليلة الاحتفال بعيد القدّيس يوحنا؟

– ماغنوليا...

– أحببتها كثيراً، الطبّاخة عندنا لا تحسن إعدادها. إذا كان الأمر ممكناً...

– ليحضرِ السيّد الذرة. وفي الحال ستعدّ ماغنوليا الحلوى لك، دكتور أوزوريو.

– عمل شاقّ...

– لا، بكلّ سرور.

كان كولودينو يراقب بصمت. نقر على قيثارته وقطع صوته حبل الصمت منشداً: "امرأة بلا وفاء".

– تعزف جيّداً كولودينو.

لا جواب. تحضّر أوزوريو للرحيل.

– حسناً. عمتم مساء. غداً سأحضر الذرة.

– أمرك سيدي... رعاك الله.

لم تكن عينا ماغنوليا تفارقان الأرض. انطفأت الشمعة المضاءة أمام القدّيس يوحنا... وأضفى السراج المتوقّد طابعاً شبحيّاً على الخيالات الفارهة. عاد كولودينو إلى الكوخ ملتزماً الصمت. اضطجع فوراً لكنّه لم يستطع النوم بسبب نقيق ضفادع النهر، والمطر على السقف، وشخير أونوريو...

خرجت الكعكة من الفرن ذهبيّة شهيّة. تذوّقتها دونا جوليا مؤكّدة أنّها لذيذة "تذوب في الفم ذوباناً". ارتدت ماغنوليا أفضل ثوب فضفاض

لديها وذهبت لتأخذ الكعكة إلى أوزريو. كنت أضع أقراط الموز في المستودع حين دخلت.

– صباح الخير، سرجيبانو.

– صباح الخير، ماغنوليا.

– هل دونا أرليندا هنا؟

– نعم.

ثم وصلت ماريا.

– آه! هذه الحلوى لأوزوريو؟ ادخلي...

دخلت ماغنوليا. شكرها أوزوريو.

– بكم أدين لك؟

– لا شيء إطلاقاً، هذا من دواعي سروري، يا سيد أوزوريو.

وكانت ماغنوليا تحدّق بالأرض داعكة طرف ثوبها.

– لا شيء! اقبلي على الأقلّ هديّة صغيرة.

عاد من غرفته حاملاً رزمة.

– هذا لكي أدفع لك ثمن تعبك.

تمتمت ماغنوليا عبارات شكر.

– هل أنت ذاهبة؟

– نعم، لدي عمل في المنزل.

– سأوصلك.

وخرج كلاهما. كان أوزوريو يروي أخباراً وماغنوليا تضحك. رفعت ثوبها حتى منتصف فخذيها لعبور البركة أمام بيت المونة حيث كانت الخنازير تتمرّغ. قال أوزوريو شيئاً ما جعلها تخجل وتخفض ثوبها. لم تكن ماغنوليا تفكّر إطلاقاً في شارع الأوحال.

منذ ثلاثة أيّام لم ينقطع المطر، لكنّنا تابعنا العمل رغم اشتداده. بما أنّ فروش التجفيف كانت مقفلة نُقل الكاكاو إلى الأفران ليجفّ. أصيبت ماغنوليا بالزكام، وأرسل أوزوريو أحدهم ليجلب أدوية لها من بيرانجي. صمتت قيثارة كولودينو واستأنف نشر الحطب. في نهاية الشهر، أجرى حسابه مع جوان فرميليو وسحب معاشه.

– هل ستترك العزبة؟

– لا عليّ شراء بعض الحاجيّات...

تعافت ماغنوليا وكان عليها أن تعود إلى العمل الإثنين.

لكنّها لم تعد، ولا كولودينو عاد.

حين ترك كولودينو عمله نهار السبت عند الساعة الرابعة سأله نيلو الذي كان يساعده: "إلى أين أنت ذاهب؟"

– لن أبتعد كثيراً.

ابتسم نيلو. عرف أنّ كولودينو سيذهب لرؤية خطيبته. لا بدَّ أنها وحدها لأن دونا جوليا كانت تجمّع أكوام الكاكاو. لكنّها لم تكن وحدها. كان أوزوريو برفقتها. كانا مضطجعين على السرير، ولم ينتبها إلى وصول النجّار. سمع نيلو صراخاً، فهرع ليرى ما الأمر. كان وجه أوزوريو مشطوباً بعمقٍ، ونظاراته محطّمة، وكولودينو يطعنه بالسكين طعناتٍ متتابعة، والدم يسيل. في حقول الكاكاو، لم نسمع شيئاً. لم تبلغها صرخات أوزوريو. ثم تعب كولودينو وتوّقف عن الطعن، فيما اكتفى نيلو بالمراقبة. قال: "نلت ما تستحقّ أيّها المقرف".

كانت ماغنوليا في قميص النوم واقفة في الزاوية منهارة تبكي أشبه بمريم المجدلية. بصق كولودينو في وجهها: "قحبة".

خرج نيلو معه.

– اهرب يا كولودينو. اذهب واختبئ عند فالنتان العجوز.

ترك الشطب ندبته في وجه أوزوريو. واستقبل شارع الأوحال ماغنوليا ومعها صورة القدّيس يوحنا.

الوعي الطبقي

للمرّة الأولى، منذ إقامتي في العزبة، ركبت مطيّة لأذهب إلى بيرانجي وأحضر طبيباً لأوزوريو. في القرية، رَويت الحادثة بطرقٍ مختلفة. كان بعضهم يؤكّد أنّ الكولونيل اغتيل، وآخرون يقسمون أنّ أوزوريو أصيب بطلقة رصاص من بندقيّته. كان الليل يهبط حين خرج الطبيب الذي قدّم العناية اللازمة إلى أوزوريو. أرسلوا في طلب أونوريو وكان الصمت في كوخنا سيّد الموقف. توقّف جوان غريلو عن رواية النكت، وأونوريو عن الضحك. اختفت ملابس كولودينو بسحر ساحر. تحرّيت الأمر بنظري فأجاب جوان غريلو همساً: "إنه عند فالنتان العجوز. وهذه الليلة سيأخذ طريق الأدغال باتجاه إيتابونا ومن هناك... وداعاً إلى غير رجعة".

– إذا أمسكوه هناك، لن يبقى منه أثر.

– ربّما من أجل ذلك أرسلوا في طلبك، يا أونوريو.

– في طلبي؟

ضحك أونوريو.

– إذاً سأذهب. لا أحد أفضل منّي لهذه المهمّة.

ابتسمنا، أنا وجوان غريلو. خرجت مع أونوريو. ما قيل عند الكولونيل بقي سرّاً. ولكن لدى عودته أخبرنا أونوريو بما جرى وصوته يحدث صدى غريباً في العتمة، ما ذكّرني بصوت روبرتو في تلك الليلة حين جعت في إيليوس.

– دفعوا لي خمسمئة ألف ريس لأقضي على كولودينو.

– وأنت، ماذا قلت لهم؟

– وافقت بالطبع. خمسمئة ألف ريس... بالتمام والكمال...

ضحك جوان غريلو الذي كان مستلقياً على سريره. سأل أونوريو: "هل نذهب؟"

– فلنذهب.

الليل مدلهمّ ونحن لا نحمل فانوساً. ذهبنا متلمّسين طريقنا في الأدغال. كان كوخ فالنتان العجوز محتجباً خلف المزارع. قرع أونوريو الباب فنهض فالنتان.

– من هناك؟

– أونوريو.

فتح فالنتان الباب حاملاً بندقيّته.

مازحه أونوريو.

– وتحمل سلاحاً أيّها العجوز؟

دخلنا. ظهر كولودينو وشدّ على أيدينا مصافحاً.

سألته: "إلى أين أنت ستذهب؟"

– إلى ريو.

"ريو دو براشو؟" سأل جوان غريلو متعجّباً.

– لا، ريو دو جانيرو. حلمت بالذهاب إليها على الدوام.

– وكيف ستذهب هناك؟

– سأسلك طريق الغابة، وأخرج منها في بيرانجي ثم أتجه إلى إيليوس، وهناك أنزل عند ألفارو. ولن أخرج من منزله إلا يوم الإبحار.

– وبطاقة السفر؟

– ألفارو سيهتمّ بكلّ شيء. لن أخرج من منزله إلا لأستقلّ السفينة...

تدخّل أونوريو: "لا تسلك طريق بيرانجي. ألجميرو ينتظرك هناك. اذهب عبر إيتابونا".

– ألا يترصدّني أحد على طريق إيتابونا؟

– بلى، أنا.

كان أونوريو يضحك وسع فمه المنفرج عن أسنانه الناصعة البياض.

– كم ستخسر يا أونوريو؟

– خمسمئة ألف ريس... هذا لا شيء.

عانقنا كولودينو، ووعدني: "سأكتب لك من ريو، يا سرجيبانو".

وسأله جوان غريلو: "هل لديك كلّ ما يلزم؟"

– سحبت معاشي عند نهاية الشهر.

انطلق أونوريو حاملاً بندقيته التي يقتنص بها طرائده. عانقه كولودينو طويلاً ثم حذّره أونوريو: "حين ستمرّ سأصوّب عليك وسأخطئك. سيُسمعني الكولونيل كلّ ألوان الشتائم. لكن النسر الروميّ لا ينقضّ على حصان أصيل".

اختفى وجهه في الليل الحالك. بعد لحظات ودّعنا كولودينو حاملاً بقجة ثيابه على كتفه وفانوساً في يده والمسدّس في حزامه. انقبضت قلوبنا حزناً. الرجل الذي يغادرنا كان أكثرنا معرفة ودراية بالأمور. رافقتُه لوقت طويل على الطريق الموحل. سرنا بصمت مهتدين بنور الفانوس الغريب وفوقنا طيور البوم جاثمة في الأشجار. وأخيراً تكلّم كولودينو: "سرجيبانو، أنا ذاهب إلى ريو وسأراسلك من هناك".

سحب شيئاً من جيبه: منديل طرّزته ماغنوليا.

– أعطها إيّاه.

– المسكينة...

– أندم فقط لأنّني لم أقتل أوزوريو، لكنّ الشطب في وجهه سيبقى، أليس كذلك؟

– بإمكانك التأكّد من ذلك.

افترقنا. واصل طريقه وسط صرخات البهائم في الليل ونقيق الضفادع. سُمع صوت طلق ناريّ في البعيد. انطفأ النور في صالون الكولونيل. عاد أونوريو مظهراً ابتسامته نفسها.

– سخطوا عليّ لأنني لم أقتل كولودينو.

– وأنت، ماذا قلت لهم؟

– قلت لهم إنّني أخطأت الهدف...

– ولماذا لم تقتل كولودينو؟ هل لأنك كنت تحبّه كثيراً؟

– كنت أحبّه كثيراً... لكنّني لم أقتل الفتى لأنه كان "مكترى" مثلنا. أن أقتل كولونيلاً، موافق، ولكن أن أقتل عاملاً، هذا يفوق طاقتي. لست خائناً...

بعد وقت طويل فقط عرفت أنّ ما فعله أونوريو لم يكن نابعاً من كرم أخلاقه وأنّه يتّخذ بعداً أسمى بكثير: الوعي الطبقي.

سخرية

رويت ما حدث لأنطونيتا ونحن ذاهبان إلى بيرانجي. ماغنوليا في شارع الحمأة لقيت نجاحاً مدوّياً لأن فضّ بكارتها كان حديث العهد.

كانت دونا جوليا تلعنها وتكيل لها الشتائم الكثيرة: "ليلعنك الله، يا كلبة، ليكن الطاعون والجوع والحرب رفاق دربك، يا خنزيرة. اذهبي وانبطحي أمام الذكور الآن، ألم يكن بإمكانك أن تنتظري خطيبك. كنت مستعجلة أليس كذلك!... فلينهشك البرص".

لم تأتِ بكلمة على أوزوريو الذي كان يتعافى في العزبة. تفوّهت أنطونيتا بجملة واحدة، تعليق واحد، مجرّد تعريف، بأفضل لمحة سخرية سمعتها في حياتي: "أوزوريو ذاك... تحميلة تلفظها الطيز".

مراسلة

عادت عائلة الكولونيل إلى إيليوس في بداية يوليو. تعافى أوزوريو لكنّ الشطب كان لا يزال يسم جانباً من وجهه. أمضوا الثاني من يوليو في بيرانجي. كانت هناك احتفالات كبيرة. تلت ماريا أشعاراً من كاسترو ألفيس، وألقى الشاعر صديق أوزوريو خطبة عن الأمية.

أوحى إليّ هذا الخطاب فكرةَ أن أجمع بضع رسائل من عمال المزارع والمومسات لكي أنشرها ذات يوم. لاحقاً، فيما كنت في ريو دو جانيرو وأعدت قرأت هذه الرسائل، خطر لي أن أكتب كتاباً. وهكذا وُلد كاكاو. ربّما ليس كتاباً جميلاً شيّق الصياغة يخلو من التكرار. أنا اليوم عامل مطبعة، أقرأ كثيراً وتعلّمت الكثير من الأشياء. لكنّ قاموسي لا يزال مختزلاً ورفاقي في المحترف يدعونني دوماً سرجيبانو مع أن اسمي هو خوسيه كورديرو.

على أيّ حال، لم تكن لديّ مشاغل أدبية فعليّة لدى كتابتي هذه الصفحات. أردت أن أروي حياة العمّال في مزارع الكاكاو. لا أعرف هل ضعّفت من هذه القصة بذكر مغامرتي مع ابنة الكولونيل. لكنّها دخلت

الكتاب هكذا ببساطة، دون أن تُدعى إليه. ربّما ذات يوم سأعود إلى حقول الكاكاو وأفيد الناس هناك بفضل الوعي الذي اكتسبته. وإذا لم أعد، سيفعل كولودينو. والآن لننتقل إلى الرسائل:

بطاقة أرسلتها أنطونيتا إليّ:

خوسيه حبيبي دوماً. أقبّلك من بعيد. لم تأتِ إليّ البارحة. يبدو أنّك نسيتني، يا حبيبي. وهذا مزعج. أطلب منك، إن كان في مقدورك، أن ترسل إليّ عشرة آلاف ريس. أنا في ضيق حال وعليّ أن أدفع مبلغاً من المال وليس لديّ رفاق آخرون، فكما تعرف أنا جديدة هنا في بيرانجي، وأرجو ألا تنظر إلى ذلك من زاوية سيئة وألا تهجرني، ودمت لي.

أنطونيتا

رسالة من زيفا إلى أونوريو:

أونوريو،

البارحة مررتَ من هنا. ناديتك وأدرت لي ظهرك. هكذا تجري الأمور. من يحمل المسك يعطّر حوله، ومن لا يملك يُحجم. خذ الصورة التي أعطيتني إيّاها. إلى المرة المقبلة. دمت لي.

زيفا

رسالة ألبيديو دو أوليفييرا، عامل زراعي، إلى المومس ماريا كانوتا:
ماريا كانوتا،
آمل أن تصلك رسالتي وأنت على أتمّ الصحة. سررت جداً لمعرفتي في 14 ديسمبر أنك وجدتِ عشيقاً جديداً. أرسل إليك تهانيّ وأتمنى أن تكوني سعيدة. سأبقى دوماً صديقك. ليرافقك سلام الله دوماً. لو سمحت اكتبي لي عنوان "عزبة الأخوّة".

ألبيديو دو أوليفييرا

رسالة من ألجميرو إلى الكولونيل (أملاها عليَّ ألجميرو وأنا كتبتها):
الكولونيل مانوييل،
أتمنّى لكم الصحّة بنعمة الله. أرسلت اليوم الخروف والخنزير. أغنيلو أخذ الأوراق. الوغد كولودينو اختفى إلى غير رجعة كما يقال. المزارع تحتاج إلى تشذيب.
ثمّ عليّ أن أقول أيضاً إنّ أخي خوسيه أطلق النار البارحة على امرأة مومس ثمّ أطلق النار على نفسه.
خادمك المطيع، ورهن أوامرك.

ألجميرو

رسالة من كولودينو إليّ:

ريو، 12 سبتمبر...

سرجيبانو،

أنا في ريو، وقد وجدت عملاً. كيف حال الرفاق من عندك؟ هل غضب الكولونيل لأن أونوريو لم يقتلني؟

تعال إلى ريو، سرجيبانو، هنا نتعلّم أشياء كثيرة ونجد أجوبة عن كلّ ما كنّا نتساءل عنه في العزبة. لا أعرف أن أوضح لك كما يجب. هل سبق وسمعت بصراع الطبقات؟ حسناً، الأمر هو هكذا. الطبقات هي الكولونيلات والعمال. تعال وستعرف كلّ شيء. وذات يوم سيكون بإمكاننا العودة وتوعية الآخرين.

سلامي للأصحاب

كولودينو

بطاقة (أو قصيدة) من سيلينا إلى جوان غريلو:

عزيزي أحبّك كثيراً، أحبك من كلّ قلبي. أنت حبّي الكبير، وأهوى كثيراً قبلاتك.

سلينا كورديرو، في 20...

وما الداعي لتثقيف الناس ما دام المحامي الدكتور لويس سيابرا

يكتب رسائل مماثلة:

بيرانجي، 5 ديسمبر ...193

صديقي الغالي سيباستيان،

بنفسٍ منخطفةٍ فرحاً وبقلبٍ يفيض لذة، أخذت الريشة المقدّسة لأعلمك بأخباري، متلهّفاً من ناحيتي أن أستقبل صديق طفولتي الذي لا ينسى.

كلّ كلمة، كلّ جملة أكتبها في هذه اللحظة، منطبعة بذكرى كئيبة حين أتذكّر تلك السنوات النضرة لطفولتنا يومَ كانت حياتنا، نحن الاثنين، مختزلة إلى ألعاب بريئة، ولم تكن قد هاجت واضطربت بفعل الصراع ولا حاصرتها تقلّبات الحظ ومصائبه. أبداً لن أنسى ذاك الذي كان غالباً بالنسبة إليّ حافزاً ومواسياً وقدوة. اليوم بعّدت بيننا المسافات لكنّ روحيْنا ظلّتا مجتمعتين لأنّني لا أستطيع أن أنساك، وأنا متيقّن أنّ الأمر سيّان بالنسبة إليك.

هكذا، رغم المصائب والمعاكسات، علينا أن نتسلّق جبل طابور الصراع خطوة خطوة للوصول إلى قمّة الظفر.

أما أنت، فإنّ مثالك قد بلغته تقريباً لأنّك عمّا قريب سترتبط بالتي اختارها قلبك برباط الزواج المقدس، وهذا ذروة ما تطمح إليه في هذه الحياة، كما كنت تقول لي...

لكنّني أشعر ببالغ الحزن لأنّني فقدت بقيّة هذه الرسالة.

إضراب

يتعيّن عليّ الانكفاء إلى الوراء لأوضح أنه حين عاد الكولونيل وعائلته إلى إيليوس، كنّا قد أصبحنا، أنا وماريا، صديقين طيّبين.

هذا الكتاب مكتوب على نحو أرعن، وتنقصه الحبكة، إن جاز القول، وهذه الذكريات عن الحياة في المزارع أسطّرها على الورق تباعاً كلّما خطرت لي. قرأت بضع روايات قبل أن أبدأ كتابة كاكاو، وأدرك فعلاً أنّ "كاكاو" لا تمتّ إليها بِصلة. الكتاب أقدّمه إليكم ببساطة كما كتبته. أردت فقط أن أروي حياة العزبة. أحياناً كانت تساورني الرغبة في كتابة عريضة أو قصيدة. ربّما لم أنجح في كتابة رواية بحصر المعنى.

لكن، كما أشرت عن صداقتي مع ماريا، عليّ أن أضيف أنّها توقّفت عن إهانتي وراحت تملي عليّ إرشادات غريبة لم أكن أوافق في جانب كبير منها على ما تطرحه. كانت تريد أن تجعل منّي كاثوليكياً صالحاً، وتلمّح إلى تقليدي وظيفة رئيس العمّال. لكنّني لم أكن أفكر إلا في عيني ماريا وشعرها الأشقر.

وأخيراً غادرَتْ عائلة الكولونيل. من حافلة القطار، لوّحت لي ماريا بمنديلها.

مساء، فكّرت في هذه العلاقة ووجدتني أبله. شعرت أنّ ماريا كانت تعجبني وكان شيء ما ينبئني بأنّني كنت أعجبها. لكن إلى أين بإمكان هذه العلاقة أن تفضي؟ كنت أجيراً، لا، بل كنت "مكترى" وأقبض ثلاثة آلاف ريس في النهار، وفوق ذلك أرتدي سروالاً "مستعملاً"، وأظفاري وسخة، ويداي خشنتان. أحبّتني أنطونيتا، هذا صحيح. لكنّها كانت مومساً من الدرجة الدنيا. أمّا ماريا، فكانت ابنة رب العمل، ابنة الرجل الأكثر ثراء في جنوب البلاد، ملك الكاكاو. لذا إنّ أدنى رجل تتوقّع أن يطلب يدها ليس بأقلّ من نائب في البرلمان يملك سيارات وفنادق خاصة في ريو دو جانيرو، وحانات ليليّة في أوروبا، وكثير الأسفار. الأسوأ في الأمر أنّني كنت أعلّل النفس بأنها تقبل أن تكون زوجة عامل. تذكّرت كولودينو، ومثله لم أكن أرغب في أن أصير ثرياً. أن تغدو ماريّا زوجة "مكترى"، فهذا القرار عائد إليها...

حين فكّرت في كلّ ذلك، انفجرت ضاحكاً حتى أنّ جوان غريلو فوجئ بتصرّفي.

– هل صرت مجنوناً، يا سرجيبانو؟

رحت أضحك وأضحك. أقسم أنّني لم تكن لدي رغبة في البكاء.

كان نيلو قد ترك العزبة وذهب ليعمل لمصلحة الكولونيل دومنغو ريس في مزرعة بعيدة. وجاء أناس من سيارا، رحّلهم الجوع، وأضحوا "مكتَرين" لدى مانيه الطاعون. كان أحدهم يسكن معنا. راح يروي لنا أخباراً محزنة عن الجفاف. لم تعد مأساة الشمال الشرقيّ تؤثّر فيّ. فقط كان صوت الشاب يؤثّر فيّ، أجل صوته الهادئ، القنوع، الفاتر. في أوقات الاستراحة، كان يصنع أراجيح ويبيعها بسعر جيّد في بيرانجي. ما كاد يصل حتى فكّر في الرحيل من جديد.

– ما إن تسير الأحوال نحو الأفضل، ويزول الجفاف حتى...

حلّ غيتاره مكان غيتار كولودينو. كنّا نشعر بالألم حين نفكّر في الرفيق الذي رحل ووعدنا بالعودة ليخبرنا ما تعلّمه. شعرنا بأملنا يكبر.

– ذات يوم سيكون...

بدأ إنتاج الكاكاو يتراجع. فقد قيمته، فجنّ جنون الكولونيل وراح يطرد عمّالاً، ونحن، الذين أبقانا، كنّا نكدّ مثل البهائم. أخذ يهدّدنا بتخفيض رواتبنا. وارتفعت أسعار السلع في بيت المونة. وداعاً لتصفية الأسعار! وحده أونوريو كان ينجح في انتزاع بعض المال. لكن، منذ رحيل كولودينو لم يعد لديه الرصيد نفسه لدى الكولونيل. كان جوان فرميليو يعاملنا بقسوة، وألجميرو يركض في الحقول وهو يصرخ بنا أن نزيد وتيرة العمل.

حتى أتى اليوم الذي خفّضوا فيه رواتبنا لتصير ثلاثة آلاف ريس. كنت في طليعة الممتنعين عن العمل. لم نعد إلى المزارع. اتّفقنا على الإضراب في سهرة أمضيناها عند فالنتان العجوز الذي كان يشيخ من يوم إلى يوم والتجاعيد ترسم نقوشاً بارزة على بشرة وجهه السوداء. كان جوان غريلو آخر الواصلين. أتى من بيرانجي لدى علمه بخطتنا لكنّه ثبّط عزيمتنا.

– انسوا الموضوع... وصل ثلاثمئة مهاجر وأكثر بسبب الجفاف، وهم يرضون بالعمل مهما يكن الراتب... ونحن سنموت جوعاً.

– هُزمنا قبل أن نباشر المعركة!

”نحن نأتي إلى العالم مهزومين“، ختم فالنتان.

أخفضنا رؤوسنا، وفي اليوم التالي، عدنا إلى العمل لقاء خمسمئة ريس أقل.

كساد

هكذا، داومنا على الوتيرة نفسها حتى نهاية الحصاد. لم يكن يبدو أنّ أزمة الكاكاو ستنتهي قريباً. وحين وافى فصل الكساد، طُردت فرق جديدة من العمال ولم يبقَ إلا الرجال المهتمّون فقط بتشذيب الحقول وتنظيفها. ازددنا بؤساً ووسخاً ورثاثة، وكنّا نلعن مصيرنا.

ذات يوم جاء أحدهم ليعيد ترميم واجهة المنزل. هكذا، عرفنا أن عائلة الكولونيل ستعود إلى العزبة حيث يُفترض أن تقام احتفالات بديعة احتفاء بنجاح الخرّيج الجامعي أوزوريو وخطوبة ماريا.

خطوبة ماريا... ذاك الشاعر الشهير الذي شارك في عيد القدّيس يوحنا أنهى دروسه بالتزامن مع أوزوريو وجاء يطلب يد ماريا فوافقت، وتوقّعنا قصفاً في الأكل والشراب. سخرت من نفسي.

حين وصلوا كنت جالساً على حجر أمام المخزن. كان عمال آخرون يثرثرون. وأنطونيو باريغينيا في الخلف يدفع الحمير التي تحمّل الأمتعة...

– حمير عديمة النفع. بهائم قذرة.

ألقى الكولونيل علينا تحيّة المساء. دونا أرليندا لم تحنُ منها التفاتة صوبنا. ماريا وجّهت تحيّة إليّ وحدي.

– كيف الحال، يا سرجيبانو؟

– جيّدة، يا دونا ماريا.

كان الخطيب وأوزوريو سيصلان لاحقاً بعد أيام. كانا يحتفلان بالعرس في بذلة المحامي رسميّاً، في بيوت الدعارة الأنيقة في باهيا. كانت الشمس في ذلك اليوم رائعة. وبدا الريف بديعاً يسرح فيه البقر والغنم. وكانت الحديقة التزيينية تتفتّح بأزهارها الصفراء والحمراء والبيضاء والبنفسجية.

أشجار الكاكاو تهدهد أوراقها. لم يكن هناك ثمار بعد لكنها بدأت تمتلئ بالأزهار، وشعر ماريا الأشقر يذكّر بذهب ثمار الكاكاو الناضجة.

وُضعتُ من جديد تحت تصرف العائلة.

بعد الظهر، أشارت إلي ماريا قائلة.

– ...

– لا، ليس هنا، تعال نذهب تحت شجرة الجاكية.

ذهبنا إلى هناك بصمت، وكنت خجلاً. راحت ماريا تقطف أزهار الأقحوان البريّة النابتة على الطريق. جلست.

– أنا مخطوبة هل تعرف؟

– تهانينا.

– هذا كلّ ما تريد أن تقوله لي؟

كان هذا تحدّياً وعندئذٍ قلت كلّ شيء. لعنتُ الكاكاو ولعنتُ نفسي. سألَتْ فقط: "وماذا بعد؟"

أمام صمتي اعترفَت بصوت خفيض: "أنت تعجبني أيضاً. أنت رجل حقيقيّ. خطيبي ليس إلا تحفة للعرض".

لا أعرف هل هذا وهم. لكنّ طعم شفتي ماريا كان يذكّر بالطعم المحرّم للكاكاو. كم من القبلات قطفت من شفتيها! أجهل ذلك أيضاً.

"وماذا بعد؟" سألَت من جديد

– أنا مكترى. أقبض ثلاثة آلاف ريس في النهار.

– دعنا لا نتحدّث عن ذلك.

وبدت حازمة: "سنقوم بالخطوة الحاسمة. سيجنّ أبي لكنّه سيجد نفسه مرغماً آخر الأمر على القبول... سيمنحك أرضاً وستكون ربّ عمل".

أحنيت رأسي محدّقاً إلى الأرض. دعكت الأوراق بيدي. في البعيد، على الطريق، مرّ أونوريو، حاملاً منجله على كتفه. اتّخذت قراري: "لا ماريا، سأبقى في عملي. لا أعرف هل تريدين أن تكوني زوجة أجير...".

أظهرت امتعاضها وانصرفت، وبقيت جالساً.

يا للمصادفة الخالصة! في ذاك اليوم بالذات، وصلتني رسالة من كولودينو يتحدّث فيها عن صراع الطبقات، ويستدعيني لموافاته. أجريت كشف حسابي مع جوان فرميليو وقبضت مئة وثمانين ألف ريس، راتبي لسنتين، وحزمت أمتعتي للرحيل.

حبّ

في اليوم التالي، ودّعت أصدقائي. كانت الريح تداعب الحقول، وللمرّة الأولى، شعرت أنني منفعل حيال الجمال الذي يحيط بي.

نظرت دون ندم إلى بيت الكولونيل. كان حبّي للطبقة التي أنتمي إليها، والمزارعين، وعمّال المصانع، كان هذا الحبّ الإنساني الكبير يطغى على الحبّ البائس لابنة السيّد. كنت أفكّر في ذلك وبحقّ.

عند منعطف أحد الدروب. التفتّ. كان أونوريو يودّعني بيده الضخمة. وتحت رواق البيت، كانت الريح تتلاعب بشعر ماريا الأشقر. ذهبت للنضال صافي القلب سعيداً.

بيرانجي، ديسمبر 1932

آراكاجو، فبراير 1933

ريو دو جانيرو، يونيو 1933

حول الكتاب

نبذة

يضطرّ سيرغيبانو إلى ترك أرضه بعد وفاة والده والتحوّل إلى عامل في مزرعة كاكاو. يُفاجأ هناك بالعبودية التي يخضع لها عمّال المزارع.

فسحة من الراحة يجدها سيرغيبانو حين تتخذه ماريّا، ابنة المالك، عبداً خاصّاً لها. لكن ذلك لا يمنع عنه مصير رفاقه من الجوع والفقر في مجتمع تضطر فيه النساء إلى بيع أجسادهن بغية العيش. ولا يمنع عنه أيضاً شعوره بواجب الدفاع عن المزارعين وتحصيل حقوقهم.

رواية توثق حياة مزارعي الكاكاو في البرازيل خلال ثلاثينيات القرن الماضي، فتكشف عن الفقر والعبودية والعنف الاجتماعي الذي ولّدته ديكتاتورية الإقطاع.

عن المؤلف

جورجي أمادو (1912-2001) من أهم كتاب الأدب البرازيلي. ترجمت أعماله إلى حوالى خمسين لغة.